الفصل الأول

العوامل المؤثرة في النشاط التجاري البحري للمغرب الأدنى من القرن ٥ – ٧ هـ/١١ – ١٣ م

أولاً العوامل الطبيعية:

أ – الموقع والتضاريس

ب – الموارد الطبيعية

ج – المناخ

د – الكوارث الطبيعية

ثانياً العوامل الاقتصادية:

أ– الرعي

ب– الزراعة

ج – الصناعة

د– التجارة البرية

ثالثاً – العوامل السياسية والأمنية:

أ – أوضاع الكيانات السياسية وموقفها من النشاط التجاري:

١ – في المغرب الأدنى

٢ – في المغربين الأوسط والأقصى

٣ – في حوض البحر الأبيض المتوسط

ب – العلاقات الدولية:

obeikan.com

١ – الصراعات الحربية والقرصنة

٢ – المعاهدات الدبلوماسية

رابعاً – العوامل الدينية والاجتماعية:

أ – العوامل الدينية

ب – العوامل الاجتماعية

obeikan.com

تأثرت التجارة البحرية في المغرب الأدنى[١] خلال الفترة الممتدة من بداية القرن الخامس إلى القرن السابع للهجرة، وبداية القرن الحادي عشر وحتى نهاية القرن الثالث عشر للميلاد، بأربعة مجموعات رئيسية من العوامل وهي: العوامل الطبيعية والعوامل الاقتصادية والعوامل السياسية والأمنية، بالإضافة إلى العوامل الاجتماعية والدينية، وسيتم عرض هذه العوامل كالتالي:

أولاً العوامل الطبيعية:

تعتبر العوامل الطبيعية من أهم العوامل لتفسير الأحداث التاريخية والحضارية للإنسان خاصة في مجال التجارة لاسيما التجارة البحرية[٢]. وتتمثل تلك العوامل في العناصر الرئيسية التالية، الموقع والتضاريس والموارد الطبيعية والمناخ والكوارث الطبيعية.

١) المغرب الأدنى: اعتاد المؤرخون تقسيم بلاد المغرب في العصر الاسلامي إلى ثلاث أقسام كبيرة بحسب قربها أو بعدها من مركز الخلافة في المشرق، وهي المغرب الأدنى والأوسط والأقصى، أما المغرب الأدنى موضوع البحث فكان يضم إقليم افريقية الشهير، وكان يشمل دولتي ليبيا وتونس الحاليتين وبعض الأجزاء الشرقية من الجزائر، انظر: الزهري: كتاب الجغرافية، تحقيق محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة د.ت، ص١١٢، القلقشندى: صبح الأعشى في صناعة الانشا، تقديم فوزي محمد أمين، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠٠٥م، جـ٥، ص١٠٠، ابن أبي دينار: المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، مطبعة الدولة التونسية، تونس ١٢٨٦هـ، ص١٨، أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ٢٠٠٥م، ص١٨.

٢)

André Wink: from the Mediterranean to the Indian Ocean : Medieval History in Geographic Perspective, Comparative Studies in Society and History, Vol. ٤٤, No. ٣ ,Jul , ٢٠٠٢, p٤٢٧.

obeikan.com

أ – الموقع والتضاريس:

يُعد المغرب الأدنى بحكم موقعه الجغرافي مركز التقاء بين إسبانيا ومصر ونهاية طريق القوافل القادمة عبر الصحراء الأفريقية. حيث كانت تجارة الترانزيت الدولية تعبر هذه المنطقة، فقد كانت نقطة تلاقي كافة الطرق والأنشطة التجارية في تلك الفترة(١).

ويكون موقع المغرب الأدنى جزء من أراضي بلاد المغرب الإسلامي، كما يؤلف كوحدة جغرافية وسكانية جزء من أجزاء القارة الأفريقية(٢). ويرى العديد من المفكرين انه كان لهذا الموقع الجغرافي الخاص أثر بالغ في تطور المسالك التجارية جنوباً وشمالاً وغرباً وشرقاً، وأيضاً كان له أثر في ازدهار تجارة الذهب والرقيق في بلاد المغرب بصفة خاصة، وبذلك اثر هذا العامل الجغرافي تأثيراً واضحاً في مساهمة المغرب الإسلامي في التجارة العالمية، وفي علاقاته الحضارية مع منطقة البحر المتوسط(٣)؛ لاسيما لأنه قريب من جنوب أوروبا حيث لا تتعدى مساحة المضيق

---

١) جوزيف شاخت، كليفورد بوروث: تراث الإسلام، ترجمة حسين مؤنس وآخرين، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، الطبعة الثالثة١٩٩٨م، جـ١، ص٢٩٧، احمد عبد اللطيف حنفي: المغاربة والأندلسيون في مصر الإسلامية من عصر الولاة حتى نهاية العصر الفاطمي، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٥م، جـ١، ص٤٨،
Stillman, Norman A: The Jews of Arab Lands "A History and Source Book", The Jewish Publication Society, Philadelphia, usa ١٩٧٩, p٤٢ .

٢) الزهري: مصدر سابق، ص١٠٧، مارمول: إفريقيا، ترجمة محمد حجي وآخرين، مكتبة المعارف، الرباط، ١٩٨٤م، جـ٣، ص٥، ممدوح حسين علي حسين: الحروب الصليبية في شمال افريقية وأثرها الحضاري [٦٦٨-٧٩٢هـ/ ١٢٧٠-١٣٩٠م]، دار عمار للنشر، عمان – الأردن، الطبعة الأولى١٩٩٨م، ص٥٢.

٣) الحبيب الجنحاني: المجتمع العربي الإسلامي"الحياة الاقتصادية والاجتماعية"، سلسلة عالم المعرفة العدد٣١٩، الكويت ٢٠٠٥م، ص٧٧، ٧٨.

openkan.com

بين شمال المغرب الأدنى وجزيرة صقلية[١] ١٣١كم، وهي ليست بالمسافة البعيدة على انتقال المؤثرات الحضارية بين الجانبين بسهولة ويسر لاسيما في المجال التجاري، وكان على السفن التي تسافر عبر هذا البحر شرقاً وغرباً أن تمر بهذا المضيق عبر العدوتين أي افريقية العدوة الجنوبية وصقلية العدوة الشمالية، ومن المعروف أهمية هذا الاتصال في حركة الملاحة بين موانئ شرقي البحر المتوسط وموانيه الغربية[٢]، ويمكننا أن نستنتج من ذلك أن هذا الموقع كان حلقة مهمة في الطرق التجارية التي تربط الشرق بالغرب[٣].

من جانب آخر توافر للمغرب الأدنى بموقعه هذا كجزء من حوض البحر المتوسط مميزات عديدة؛ فالبحر المتوسط بموقعه الممتاز والذي كان متوغلاً بألسنته المتعددة ومضايقه ومجموعاته الجزرية المتعددة المتناثرة في عمق العالم القديم يشكل أكثر من نصف الكرة الأرضية[٤]. كما يعتبر حوض البحر المتوسط في

---

١) صقلية: جزيرة ضخمة في البحر المتوسط جنوب ايطاليا، وبعد مرور عدة قرون على افتتاح المسلمون لها تغلب عليها النصارى عام ٤٥٣ هـ/١٠٦٠م، انظر الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٤ م، ص٣٦٦، ٣٦٧.

٢) ابن حوقل: صورة الأرض، منشورات مكتبة الحياة، بيروت ١٩٩٢م، ص٦٤، البغدادي: مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى١٩٩٢م، جا، ص١٠٠، حسن خضيرى أحمد: علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب (٣٦٢ – ٥٦٧ هـ / ٩٧٣ – ١١٧١ م)، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الأولى د.ت، ص١٠٥، ممدوح حسين علي حسين: مرجع سابق، ص٥٤، ٥٥.

٣) جوزيف شاخت، كليفورد بوروورث: تراث الإسلام، جا، ص٢٨٧، ٢٨٨، يسري الجوهري: مرجع سابق، ص١٠.

٤) الإصطخري: المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال الحينى، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة٢٠٠٤م، ص٣٣، محمد إبراهيم حسن: دراسات في جغرافية أوربا وحوض

الغالب الأعم أهم مناطق التمدن والاستقرار الحضاري على طول التاريخ الإنساني، مثل أثينا وروما والإسكندرية وقرطبة وبيزة وقائمة طويلة من المدن الأخرى كانت مراكز للحضارة(١). كما شكلت الأنهار طرقاً ملاحية قليلة التكاليف في وسائل النقل التجاري في معظم أجزاء حوض البحر المتوسط، خاصة وأن بعض هذه الأنهار ربطت المناطق الداخلية بالسواحل المطلة على البحر المتوسط مثل نهر النيل، ونهر مجردة بالمغرب الأدنى نفسه(٢). كما امتاز حوض البحر المتوسط بتنوع موارده الطبيعية؛ فسواحله عبارة عن سلسلة من الأراضي الزراعية الخصبة، تتناثر فيها موارد نباتيه مثل الأخشاب والموارد المعدنية هنا وهناك، وهذا أدى إلى ازدهار النشاط التجاري البحري بين بلاد البحر المتوسط(٣).

أما تضاريس بلاد المغرب عامة والمغرب الأدنى خاصة، فقد كان لها التأثير الكبير على النشاط التجاري البحري(٤). ويظهر ذلك التأثير في تضاريس السواحل، حيث أثر امتداد تلك السواحل وكثرت وجود الخلجان المحمية من الرياح والأنواء

البحر المتوسط، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية ١٩٩٩م، ص ٢٠٩، ٢١٥، يسري الجوهري: مرجع سابق، ص٩ – ١١.

١) ابن حوقل: مصدر سابق، ص١٤٣، حمدي عبد المنعم محمد حسين: محاضرات في تاريخ مصر الإسلامية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ٢٠٠٥م، ص١٨٥، ١٨٦، : André Wink : Op.Cit , p٤٢٦

٢) ابن حوقل: مصدر سابق، ص٢٧٨، عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد زينهم محمد عزب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٤م، ص٢٩٤.

٣) الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة د.ت، جا، ص٢٥٦، ٣٧١، الزهري: مصدر سابق، ص٧٨، الحميري: مصدر سابق، ص١٢٠، محمد إبراهيم حسن: مرجع سابق، ص٢٣٢، مصطفى محمد الحناوي: العلاقات بين جمهورية أمالفي والمسلمين في مصر والشام، مكتبة الرشد، الرياض٢٠٠٣م، ص٢٢٠، ٢٢١.

٤) ممدوح حسين علي حسين: مرجع سابق، ص ٥٤.

obeikan.com

بها، في تعدد الموانئ الآمنة في الساحل المطل على البحر المتوسط؛ مثل موانئ طرابلس[١] وقابس[٢] وصفاقس[٣] والمهدية[٤]، وغيرها العديد من الموانئ الأخرى[٥]. وهذا ما سنوضحه في عرضنا لتلك المراكز التجارية البحرية في الفصل الثاني.

---

١) طرابلس الغرب: من مدن المغرب الأدنى الساحلية، استمرت طيلة العهد الإسلامي تكون مع افريقية وحدة إدارية حيناً وتصبح بذاتها وحدة مستقلة حيناً آخر، كما أن الحدود بينها وبين برقة تزحف غرباً وشرقاً، انظر: ابن غلبون الطرابلسي: تاريخ طرابلس الغرب المسمي " التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار"، ص١، ٢، محمد محمد مصطفي بازامه: ليبيا، مكتبة قورينا، بنغازي، الطبعة الثانية١٩٧٥ م، ص٩٤، ٩٥.

٢) مدينة قابس: من مدن المغرب الأدنى، تبعد عن طرابلس ثمانية أيام، وهى مدينة كبيرة قديمة محصنة كثيرة الثمر، وفيها فنادق وحمامات، انظر: الحميري: مصدر سابق، ص٤٥٠.

٣) مدينة صفاقس: مدينة بالمغرب الأدنى بينها وبين قفصة ثلاثة أيام، وهي مدينة قديمة عامرة، واشتهرت بصيد السمك الكبير وزراعة الزيتون وإنتاج زيته بكثرة، انظر: الحميري: مصدر سابق، ص٣٦٥.

٤) مدينة المهدية: من مدن المغرب الأدنى الساحلية، أنشئها عبيد الله الشيعي، تبعد عن القيروان يومين، وكانت من أمنع الحصون في بلاد المغرب، انظر: القاضي النعمان: كتاب افتتاح الدعوة، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت٢٠٠٥م، ص١٠٧، فرحات الدشراوي: الخلافة الفاطمية بالمغرب (٢٩٦ – ٣٦٥ هـ / ٩٠٩ – ٩٧٥ م)، ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى١٩٩٤ م، ٥٦٦، ٥٦٧،
Stillman , Norman A : The Jews of Arab Lands " Ahistory and source Book ", p٤٢ .

٥) ابن حوقل: مصدر سابق، ص٧١ – ٧٤، البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة د.ت، ص٧، ٢٩، ١١٧، ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت١٩٧٧م، جـ٤، ص٢٨٩، جـ٥، ص٢٣١، الإدريسي: مصدر سابق، جـ١، ص٢٨١،٢٧٩، مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، بغداد، د.ت، ص١١٧، السيد عبد العزيز سالم، احمد مختار العبادي: تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس ، دار النهضة العربية ، بيروت١٩٦٩م، ص٥٢.

obeikan.com

كما كانت تضاريس قاع البحار نفسها عاملاً مؤثراً في سير الرحلات البحرية، فقد كانت الشعاب المرجانية تشكل خطراً كبيراً علي الملاحة، ويظهر ذلك التأثير في وصف ابن العربي لإحدى الرحلات البحرية القادمة للمغرب الأدنى عبر البحر المتوسط. وتظهر تأثير الشعاب المرجانية أكثر في البحر الأحمر[١] حيث يكثر به تلك الشعاب التي كان يحتاط منها كل البحارة في تلك الفترة سواء في الإبحار أو حتى عند صناعة السفن كما سنرى في الفصل الثالث[٢].

ب – الموارد الطبيعية :

وتتمثل تلك الموارد في مجالين الغطاء النباتي والثروة المعدنية، أما الغطاء النباتي فيكمن تأثيره الحقيقي على التجارة البحرية في وجود أنواع معينة من أشجار الغابات التي كانت تُستخدم في صناعة أساطيل السفن المُستخدمة في التجارة البحرية، فقد كانت الأشجار تكثر في الجبال المرتفعة مما كان يوفر للسكان الأخشاب اللازمة لهم للوقود وأعمال البناء وصناعة السفن. فقد اشتهرت قابس بوجود الغابات الملتفة حولها. وعلى حدود بلاد المغرب الأدنى في مدينة بجاية، التي تميزت بوجود الأخشاب المُستخدمة في صناعة السفن بكثرة في جبالها وأوديتها، كما كان يجلب من

١) كان البحر الأحمر يسمى بحر القلزم، وسمي القلزم لأنه في مضايق بين جبال، ومبدؤه من باب المندب، حتى ينتهي إلى مدينة القلزم وإليها ينسب، انظر: الإدريسي: مصدر سابق، جـ١، ص١٠، الحميري: مصدر سابق، ص٤٦٦.

٢) ابن جبير: رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، د.ت، ص٥٢، المقري: أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة١٩٤٠م، جـ٣، ص٨٩، أمين توفيق الطيبي: دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، الدار العربية للكتاب١٩٩٧م، ص١١١.

obeikan.com

أوديتها الزفت والقطران والحديد وهي كلها مواد أساسية لصناعة السفن[١]. كما سنرى ذلك في الفصل الثالث.

من جانب آخر كانت هناك معادن عدة تؤثر بشكل مباشر أو غير مباشر في التجارة البحرية، على اعتبار أنها سلعه من سلع هذه التجارة. ومن المعادن والأحجار الكريمة التي تميز بإنتاجها بلاد المغرب الأدنى حجر اللازورد الجيد، والمرجان واشتهرت مدينة مرسى الخرز بإنتاجه، وكان مشهوراً بجودته في العالم آنذاك[٢].

كما كان المغرب الأدنى منتجاً لمعادن الرصاص والحديد والكبريت والمرجان والنحاس والكحل والرخام ، فقد كان هناك مناجم للرصاص ، مثل منجم جبل الرصاص الواقع على بعد ثلاثين كيلومتراً جنوب شرقي مدينة تونس[٣] ، وكذلك

---

١) الإدريسي: المصدر السابق، جـ١، ص٢٦٠، ٢٧٩، ممدوح حسين علي حسين: المرجع السابق، ص ٥٣،
ومدينة بجاية: قاعدة المغرب الأوسط وعاصمة بني حماد على ساحل البحر، اشتهرت بزراعة النباتات الطبية والحنطة والشعير والفواكه ، وبها معدن الحديد وصناعات متعددة، انظر: الحميري: مصدر سابق، ص٨٠ – ٨٢.

٢) البكري: مصدر سابق، ص٣٣، الإدريسي: مصدر سابق، جـ١، ص٢٩٠، الهادي روجي إدريس: الدولة الصنهاجية (تاريخ افريقية في عهد بني زيري من القرن١٠ إلى نهاية القرن ١٢م، ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى١٩٩٢م، جـ٢، ص ٢٥٥،
ومدينة مرسى الخرز: من مدن المغرب الأدنى الساحلية شرق مدينة بونة، اشتهرت بإنتاج المرجان، انظر الحميري: مصدر سابق، ص٥٣٨، الإدريسي: مصدر سابق، جـ١، ص٢٩٠.

٣) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت ١٩٧٩م، ص١٤٨.
ومدينة تونس: من مدن المغرب الأدنى الساحلية، سميت قديماً ترشيش، وطورها المسلمون وسميت تونس، اشتهرت بكثرة الفواكه والغلات وجودتها وصحة الهواء، انظر: البغدادي: مصدر سابق، جـ١، ص٢٨٢، .

obeikan.com

مناجم الحديد في الأربس[١] وبونة[٢] ومجانة[٣]، وألواح الرخام بمدينة قرطاج[٤]، كذلك كان هناك منجم للكبريت يقع بين برقة[٥] وطرابلس بالقرب من حصن يدعى طلميثة[٦]؛ ويظهر وجود المعادن على التجارة البحرية للمغرب الأدنى في أنها كانت من المواد التي صدرتها بلاد المغرب الأدنى للخارج[٧].

---

١) مدينة الأربس: من مدن المغرب الأدنى، تبعد عن القيروان ثلاثة أيام، اشتهرت بوجود الحديد، وزراعة الحنطة والشعير والزعفران والعنبر، انظر: الحميري: مصدر سابق، ص٢٤، ٢٥.

٢) مدينة بونة: مدينة حصينة بها آثار كثيرة، وهي مشهورة بكثرة إنتاج اللحوم والألبان الثمار، انظر: الحميري: مصدر سابق، ص١١٥.

٣) مدينة مجانة: من مدن المغرب الأدنى تبعد عن قسنطينة ثلاث مراحل، اشتهرت بمناجم الحجارة المستخدمة في المطاحن، وهي مدينة صغيرة عليها سور ترابي، انظر الحميري: مصدر سابق، ص٥٢٥.

٤) رسالة من التاجر إبراهيم بن خليفة الجلاد بتونس إلي التاجران البيزيان باج وفرسطان ، بخصوص معاملات تجارية، نشرهاMichel Amari في كتابه A Diplomi Arabi Del Archivio Fiorntino، تحت رقم ١٨، ص٥٧، ٥٨، ابن حوقل: مصدر سابق، ص٨٤، ٨٥، الإدريسي: مصدر سابق، جـ١، ص٢٨٨، ص٢٩٠-٢٩٢، المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل، ليدن١٩٠٦م، ص٢٢٤ – ٢٢٦، الهادي روجي إدريس: مرجع سابق، جـ٢، ص٢٥٣، ٢٥٤.

٥) مدينة برقة: أول بلاد المغرب الأدنى، تبعد عن شرق بنغازي١٠٠ كم، افتتحها المسلمون عام ٢٢هـ / ٦٤٣ م، كانت ترتبط بالبحر بميناء طلميثه، انظر: الاصطخري: المسالك والممالك، ص٣٣، سعيد علي حامد: تاريخ ومعالم الحضارة والعمران في ليبيا، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية، القاهرة، الطبعة الاولى ٢٠٠٨ م، ص١٦٦، ١٦٧.

٦) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٢٩٢.

٧) رسالة من التاجر إبراهيم بن خليفة الجلاد، ص٥٧، ٥٨، عبد الهادي التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم، مطبعة فضالة، المحمدية – المغرب١٩٨٦، ١٩٨٧م، جـ٦، ص٢٢٢.

obeikan.com

كما توافر الملح الذي كان يصدر للخارج، فقد كان هناك ملاحات مثل منجم زبرة الأرطاية الواقع شمال غربي بسكرة[١]، وكذلك كانت ملاحة لمطة تنتج ملحاً بحرياً لا مثيل له يُصدر إلى المناطق المجاورة[٢]. وكان التجار الأجانب يقدرون بالخصوص الملاحات التونسية والطرابلسية بسبب جودة المادة المستخرجة منها[٣].

وفي المقابل يمكن القول أن نقص بعض المعادن الأساسية عن سد الاحتياجات المحلية للمغرب الأدنى كان له أثره في نشاط استيراد هذه المعادن من الخارج وذلك عن طريق التجارة الخارجية لاسيما البحرية[٤]. لذلك نجد أن مناطق أخرى يمكن أن تكون مصدره لتلك المعادن عن طريق التجارة ، فمثلا كان يجلب من بجاية الزفت والقطران ومعدن الحديد الجيد[٥]، كذلك استخرج النحاس من مدينة داي

---

١) بسكرة: قاعدة بلاد الزاب بأرض المغرب، وهي كثيرة النخل والزيتون والثمار، عليها سور وخنادق وبها جامع ومساجد وحمامات، ويحيطها غابة من البساتين مقدارها ستة أميال، انظر الحميري: مصدر سابق، ص١١٣.

٢) البكري: مصدر سابق، ص٥٢، ٨،٥٨، المازري: فتاوى المازري، تحقيق الطاهر المعموري، مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان، الدار التونسيه للنشر، تونس١٩٩٤م، ص٢٩٣، الهادي روجي إدريس: مرجع سابق، جـ٢، ص٢٥٤، ٢٥٥،

Mas Latrie :Traite de Paix et de Commerce et Documents Divers CONCERNANT LES RELATIONS des Chrétiens Avec les arabes de L'Afrique Septentrionale au Moyen – Age ,Paris ١٨٧٢, p٢٢٤.

٣) البكري: مصدر سابق، ص٥٢،٨، التيجاني: رحلة التجاني، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس ١٩٨١ م، ص ٢٠٧، روبار برنشفيك: تاريخ افريقية في العهد الحفصي من القرن ١٣ إلى نهاية القرن ١٥، ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب الاسلامى، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٨م، جـ٢، ص٢٣٩ ، ٢٤٠ ،

Mas Latrie : Op,Cit, p٢٢٤.

٤) روبار برنشفيك: مرجع سابق، جـ٢، ص٢٤٠.

٥) الإدريسي: مصدر سابق، جـ١، ص٢٦٠.

obeikan.com

القريبة من مدينة تادلة بالمغرب الأقصى ثم كان يحمل إلى سائر البلاد[١]، وكذلك تم استخراج أملاح النشادر بكميات وفيرة من جزيرة صقلية، وأيضاً استخرجت كميات من الفضة والحديد والرصاص والزئبق والكبريت والنفط وكانت توجد بكميات غير قليلة في الجزيرة[٢]، وبالأندلس معادن كثيرة من الزئبق والحديد والرصاص[٣].

وهناك معادن أثرت بشكل غير مباشر في التجارة البحرية مثل المعادن التي استخدمت في صناعة العملات التجارية وأهمها الذهب والفضة[٤]. فقد كانت بعض مناطق المغرب الأدنى تنتج معدن الذهب حيث أشارت رسالة ابن أبي زيد إلى مناجم للذهب والفضة بالمغرب الأدنى[٥] مثل جزيرة جربة[٦]. إلا أن مصدره الأساسي كان بلاد السودان الغربي خاصه منطقة ونقارة، وكان الذهب كمعدن يتصدر هذه القائمة إذ كان يشق طريقه بواسطة القوافل البرية عبر الصحراء إلي موانئ طرابلس وقرطاجنة وبونة ثم المهدية. ومع أنه وجدت طرق أخرى بعد الفتح لتجارة الذهب مثل تلك التي كانت بالمغرب الأقصى، إلا أن طريق إفريقية بقي

١) المصدر السابق: ص٢٤١.

٢) القزويني: مصدر سابق، ص٢١٥، ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، تحقيق خليل شحاذة، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت ٢٠٠٠م، جـ٦، ص ٢١١، أرشيبالد.ر.لويس: القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (٥٠٠– ١١٠٠م)، ترجمة أحمد محمد عيسى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة د.ت، ص٣٣١ ، ٣٣٢.

٣)ابن حوقل: مصدر سابق، ص١٠٩، ١١٠.

٤) المصدر السابق: ص٨٤، ٨٥.

٥) أبي زيد القيرواني: الرسالة في فقه الإمام مالك، تحقيق عبد الوارث محمد علي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ص٨١.

٦) البكري: مصدر سابق، ص٨٥، سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي، منشأة المعارف، الإسكندرية١٩٩١م، جـ٣، ص٤١٤.

obeikan.com

محافظاً على أهميته الأمر الذي أضفى عليها أهمية خاصة بالنسبة للاقتصاد الأوروبي في العصور الوسطي[١].

كما كان هناك مناجم لانتاج الفضة بالمغرب الأدنى مثل منجم مجانة، ومنجم جبال جندر وما والاها من أرض سوسو وإقليم سوسو بإفريقية[٢]. وإذا أضفنا إلى هذه المناجم مناجم مغربية أخرى، كمنجم حصن وركناس، ومعدن "السليميمية" بالسوس الأقصى ومن جبل فازار[٣]، أو تلك التي تقع بمدن الأندلس لاسيما بناحية البيرة ومرسية وبقرب قرطبة بموضع يقال له كرتش وبناحية تطيلة سمور الكثير أيضاً[٤].

---

١) مجهول: كتاب عن الصناعة المعدنية بالسوس، تحقيق عمر أفا، في (متنوعات محمد حجي)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى١٩٩٨م، ص١٣٨، كولين ماكيفيدى: أطلس التاريخ الإفريقي، ترجمة مختار السويفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٢م، ص٨٩، إبراهيم على طرخان: إمبراطورية غانة الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة١٩٧٠م، ص٦٨، كرم الصاوي باز: تجارة الذهب والتغيرات الاقتصادية والاجتماعية في بلاد السودان الغربي وبلاد المغرب، في الفترة من [ق٣ – ٥ هـ/٩-١١م]، أعمال ندوة التواصل العربي الافريقي عبر الصحراء الكبرى، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة ٢٠٠٣م، ص١٠،

Michael Brett : Ifriqiya as A Market for Saharan Trade from the Tenth To The Twelfth Century A.D, The Journal of African History , Vol .١٠ , No.٣ .١٩٦٩ , pp .٣٤٨,٣٤٩.

٢) ابن حوقل: مصدر سابق، ص٨٤ ، ٨٥، ابو الحسن الحكيم: الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة، تحقيق حسين مؤنس، مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد السادس، العدد ١-٢ ، ١٩٥٨م ، ص٢٣.

٢) مجهول: كتاب عن الصناعة المعدنية بالسوس، ص١٣٦.

٤) الإصطخري: مصدر سابق، ص ٣٦، مجهول: الاستبصار ، ص١٨٧، عبد الواحد المراكشى: المعجب ، ص ٢٩٣، عز الدين عمر موسى: النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، دار الشروق، القاهرة ١٩٨٣م ، ص ٢٤٨، أحمد الجمال: مرجع سابق، ص ١٣٨،

obeikan.com

جـ- المناخ:

كان المناخ ذات أهمية خاصة في النشاط التجاري البحري للمغرب الأدنى خاصة الرياح، حيث تعتبر الرياح عنصراً بارزاً في تسيير الرحلات التجارية البحرية خاصة مع كثرة السفن التي تستخدم الشراع في تلك الفترة. وكان تأثير الرياح يتعدى الدور الإيجابي له في تسيير السفن، ليشمل دوراً سلبياً خاصة مع هبوب العواصف[١] والتي كانت تسمى بـ (النوء)، فكثير من الرحلات التي ذُكرت في المصادر التاريخية كانت تقترن دائماً بهبوب الرياح العاتية التي قد تحول دون قيام الرحلة أو استمرارها. وقد يحدث أحياناً وتكون الرياح راكدة، بشكل يستحيل معها أن تقلع السفن التي تستخدم الأشرعة للإبحار[٢]. كما كانت الريح في بعض الحالات تتجه في اتجاهات عكس اتجاه سير السفن مما يؤدي إلى توقف تلك السفن في عرض البحر، وعدم قدرتها على الدخول إلى الميناء المستهدف من الرحلة [٣].

ومدينة تطيلة: مدينة بالأندلس، وهي أجود الثغور زرعاً وثمراً، انظر الحميري: مصدر سابق، ص١٣٣.

١) تأخذ الأعاصير ثلاثة مسيرات في حوض البحر المتوسط، فأما الخط الشمالي فيخترق الجنوب الأوربي وأما الخط الأوسط فيمر علي جزر البحر المتوسط حتى الغرب السوري، بينما يمر الخط الإعصاري الجنوبي علي الشمال الإفريقي، وبسبب تذبذب حالة تلك الخطوط فأمطار حوض البحر المتوسط ليست مستقرة بين الزيادة والنقصان من سنة إلى أخري، انظر: محمد إبراهيم حسن: مرجع سابق، ص ١٦٦، ١٦٧.

٢) المازري: مصدر سابق، ص ١٠٨، ابن جبير: مصدر سابق، ص٥٠، ٥١، ٢٨٥، ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه (المعروف بتاريخ الجزري)، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٨م، جـ٢، ص٤٤١.

٣) ابن غلبون الطرابلسي: مصدر سابق، ص٤ .

obeikan.com

كما أن الرياح ممكن أن تكون سبباً في أن بعض السفن التجارية تجنح على غير إرادتها إلى بعض الشواطئ، ومن ثم تعجز عن الإقلاع مره ثانية إلا بعد فترة وهذا ما حدث عندما جنحت إحدى السفن التجارية البيزية، والتي كانت محمله بالقمح نحو أطراف مدينة طرابلس وذلك في عهد الخليفة الموحدي أبي يعقوب يوسف(٥٥٨-٥٨٠هـ/١١٦٣-١١٨٤م)[١].

لم يؤثر المناخ على التجار المغاربة ورحلاتهم فقط، ولكن أثر أيضا علي نظرائهم الإيطاليين لاسيما التجار الجنويين وهم أبرز من تاجر مع المغرب الأدنى، والذين كان عملهم يتأثر بمناخ بلادهم، فقد كان نشاط هؤلاء التجار يتفاوت من فصل لأخر من العام، ففي بعض شهور السنة زاد نشاطهم في عالم التجارة البحرية، وفي بعض الشهور الأخرى قل نشاطهم بشكل كبير[٢].

د – الكوارث الطبيعية:

إذا كانت هناك عوامل أدت إلى ازدهار النشاط التجاري هناك عوامل معوقة له، خاصة الكوارث الطبيعية والمجاعات والأوبئة، فقد كان لاستفحال الجفاف وندرة الأمطار وانتشار المجاعات آثاره السلبية في الظروف الاقتصادية والأحوال الاجتماعية[٣].

---

١) رسالة من حاكم بيزة إلى الخليفة ألموحدي أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، مؤرخة بـ٢٣ ابريل١١٨١م، نشرها Michel Amari في كتابه Diplomi Arabi Del Archivio Fiorntino، ص٧، ٨.

٢) Steven A,Epstein: Business Cycles and the Sense of Time in Medieval Genoa, The Business History Review, Vol. ٦٢, No. ٢, ١٩٨٨, The President and Fellows of Harvard College, p٢٦٠.

٣) ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب: تحقيق ج. س. كولان، ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثالثة١٩٨٣م، جـ١، ص٢٧٣- ٣٠١،٢٧٥، ٣٠٥،

obeikan.com

ومن الكوارث الطبيعية التي أثرت على التجارة البحرية بشكل مباشر المجاعة التي حدثت عام ٥٣٦هـ/١١٤١م، والتي أعقبها غلاء اشتد بكامل المنطقة حتى عام٥٤٢هـ /١١٤٧م، مما أدى لهجرة الكثير من الناس لجزيرة صقلية، مما دفع بالأمير الزيري الحسن (٥١٥ – ٥٤٣ هـ/١١٢١ – ١١٤٨م) إلى عقد اتفاق مع ملك النورمان روجار للتقليل من حدة هذه المجاعة من خلال استيراد القمح منهم مما مهد لتدخل النورمان ببلاد المغرب وإحتلالها[١].

شارل فيرو: الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الايطالي، ترجمة محمد عبد الكريم الوافي، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي – ليبيا، الطبعة الثالثة ١٩٩٤م، ص٥٤،

المتتبع للمصادر في تلك الفترة يلاحظ بعض السنوات العجاف التي مرت بها بلاد المغرب الأدنى منذ عهد المعز بن باديس فقد حدث قحط وغلاء ومجاعات وزلازل وأوبئة في أعوام ٤٠٩ هـ / ١٠١٨ م و٤١٣هـ /١٠٢٢م و٤٢٥هـ /٣ – ١٠٣٤ م و٤٣٢هـ /١٠٤٠م و٤٣٧ هـ/٤٥ – ١٠٤٦م و٤٦٩هـ /١٠٧٦م و٤٩١هـ /١٠٩٧م و٥٠٤ هـ /١١١٠م و٦١٧هـ /١٢٢٠م، انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، جـ١، ص٢٧٣ – ٢٧٥، ٣٠١، ٣٠٥،ابن الزيات: التشوف إلى رجال التصوف وأخبار ابى العباس السبتى، تحقيق احمد التوفيق، جامعة محمد الخامس، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، الطبعة الأولى١٩٨٤م ، ص١٤، ابن ابي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة الرباط ١٩٧٢م ، ص٢٧٢، جمعة شيخة: ملامح من النشاط الفلاحي في المجتمع الريفي بافريقية من الفتح إلى القرن ٥هـ /١١م من خلال كتب الطبقات، مقال منشور في أعمال المؤتمر الثالث للتاريخ وحضارة المغرب، المنعقد في وهران من ٢٦ إلى ٢٨ نوفمبر ١٩٨٣ م، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ١٩٨٧ م، جـ١، ص٤٤.

١) ابن عذاري: مصدر سابق ، جـ١ ، ص٣١٣، المقريزي: اتعاظ الحنفا بأخبار الأمة الفاطميين الخلفا، تحقيق جمال الدين الشيال، محمد حلمي محمد احمد، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، الطبعة الثانية ١٩٩٦م، جـ٣، ص١٨٧، أتوري روسي: ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة١٩١١م، ترجمة خليفة محمد التليسي، الدار العربية للكتاب . ليبيا، الطبعة الثانية١٩٩١م، ص١٠، أومبرتو ريتسيتانو: النورمانديون وبنو زيري من الفتح النورمندي

obeikan.com

ومن آثار هذه المجاعات والقحط على النشاط التجاري البحري موت العديد من التجار بالأوبئة كالطاعون، مثل ما حدث في إفريقية عام ٣٩٥ هـ / ١٠٠٤ م وأدى إلى موت ما لا يحصي عددا من أهل العلم والتجار والصبيان، وبلغ الطاعون من شدته أن استعمل الأخدود الواحد لدفن المائة شخص فأكثر[١].

وكذلك كانت المجاعات والأوبئة تنتهي بغلاء شديد وارتفاع شديد في أثمان السلع الضرورية[٢]. ففي عصر الحفصيين ونتيجة للمجاعات والقحط المتكرر كان السلاطين حريصون على منع ارتفاع أسعار الحبوب بصورة مضرة بالمستهلكين، فكانوا يضعون التجارة في هذه المادة تحت رقابة وقيود شديدة. ولقد وضحت لنا المعاهدات المبرمة بينهم وبين البندقية وجنوة[٣]، كيف كانوا يبيعون لهما القمح بكل تقتير بالرغم من إلحاحهما. فقد كانوا يشترطون حصول نقص كبير في تلك المادة في البلدين المذكورين، على أن لا يتجاوز ثمنها حداً معيناً في السوق الإفريقية، ما بين ثلاثة دنانير وثلاثة دنانير ونصف القفيز في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي. كما كانت الكمية المصدرة محددة في نفس الفترة بحمولة عدد معّين من

لصقلية حتي وفاة رودجيرو الثاني (٤٥٣ – ٥٤٨هـ /١٠٦١ – ١١٥٤م) مقال في مجلة الآداب مطبعة جامعة فؤاد الأول ١٩٤٩ م، المجلد١١، جـ١، ص١٨٧.

١)ابن عذاري: مصدرسابق، جـ١، ص٢٥٧.

٢) المصدر السابق: جـ١، ص٢٥٦،٢٥٧، إبراهيم القادري: الإسلام السري في المغرب العربي، دار سينا للنشر، القاهرة، الطبعة الأولى١٩٩٥م، ص٧٦، ١٩٠،١٨٩.

٣) مدينتي البندقية وجنوة: هما مدينتان ايطاليتان، وكانت البندقية في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي تتكون من سبع عشرة ومائة جزيرة تربط بعضها ببعض الجسور والقناطر، كذلك عرفت جنوة بشهرتها في مجال التجارة البحرية، كما اشتهر أهل تلك المدينة بكثرة معاركها الحربية في البحار، انظر الحميري: مصدر سابق، ص١٧٣، فاروق عثمان أباظة: تحول التجارة العالمية عن عالم البحر المتوسط إلى رأس الرجاء الصالح وأثره في العلاقات التجارية بين الإسكندرية والبندقية في مطلع العصر العثماني(٩٢٣هـ /١٥١٧م)، مجلة كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية، عدد١٠ ربيع١٩٩٩م، ص٢، ٣.

السفن– خمس سفن بالنسبة إلى جنوة وثمان ثم اثنتا عشرة بالنسبة إلى البندقية– وقد كان القمح المصدر لسد الحاجات الضرورية لاستهلاك البندقية وجنوة، معفي عند الخروج من أي أداء[١].

ولم تكن الكوارث الطبيعية بالمغرب الأدنى أو حتى ببلاد المغرب عامة تؤثر وحدها سلباً على التجارة البحرية وحركة السفن بالبحر المتوسط، ولكن المجاعات والأوبئة التي حدثت في بلاد أخرى مثل مصر أثرت أيضاً على حركة السفن من وإلى مصر، فالراجح أن حركة التجارة البحرية بين مصر وباقي البلدان خاصة بلاد المغرب انقطعت عقب الشدة المستنصرية أو المجاعة التي بدأت بمصر عام٤٥٧هـ/١٠٦٥م والتي امتدت سبع سنين ، نتيجة لانقطاع فيضان النيل في تلك الفترة[٢].

يمكن القول من خلال ما سبق أن النشاط التجاري البحري لبلاد المغرب الأدنى تأثر بعوامل طبيعية متعددة، ومن هذه العوامل الموقع والتضاريس والموارد الطبيعية لاسيما الغطاء النباتي والمعادن، بالإضافة إلى المناخ خاصة الرياح، كذلك

---

١) Un Traité de commerce, conclu dix ans, entre la république de Gênes et abou-Zakaria-Yahia, roi de Tunis et de Tripoli, par Conrad de Castro, ambassadeur génois, en ١٢٣٦, ١٠ juia (A Tunis) Turin. Archives du royaume. Genoua, publié par Mas Latrie ; Traite de Paix et de Commerce les Relatio Divers et Documents des Chrectiens Avec les arabes de L'Afrique Septentrionale au Moyen – Age ,Paris ١٩٦٠, pp١١٦ – ١١٨ , Un Traité de paix et de commerce pour quarante ans entre Marin Morosini, doge de Venise, et Abou-Abd-Allah el-Mostancer-Billah, Roi de Tunis et de Tripoli, négocié à Tunis par philippe Giulianí, ambassadeur vénitien, en١ avril ١٢٥١ (A tunis). Venise. Archives generals. Libri. Pactorum, I, fol.١٦٤ v; et Libri. II, fol.٣, publié par Mas Latrie; Traite de Paix et de Commerce les Relatio Divers et Documents des Chrectiens Avec les arabes de L'Afrique Septentrionale au Moyen – Age ,Paris ١٩٦٠, pp١٩٩-٢٠٢ , روبار برنشفيك : مرجع سابق ، جـ٢ ، ص٢٦٦

٢) ابن الاثير: مصدر سابق، جـ٨، ص٣٨١، المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص٢٧٩-٢٨١، ابن تغري بردى:النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة،تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى١٩٩٢م، جـ٥، ص٤٢٨.

كان هناك تأثير سلبي على النشاط التجاري البحري خاصة فيما يتعلق بالأوبئة والقحط وندرة الأمطار وما يعقبها من مجاعات وارتفاع للأسعار.

ثانياً – العوامل الاقتصادية:

ارتبطت التجارة لاسيما الخارجية منها خاصة البحرية بالإنتاج الرعوي والزراعي والحرفي[١]؛ لذلك يجب عرض تلك المقومات الاقتصادية التي أثرت بشكل كبير علي النشاط التجاري، وذلك فيما يلي:

أ–الرعي:

اشتهرت بلاد المغرب الأدنى بإنتاج الأغنام، وذلك لطبيعة سكانها وانتشار مناطق الرعي بها؛ كما أثرت اتساع حياة الترحال نتيجة الغزوة الهلالية، لإفساح المجال لتربية المواشي من الإبل والغنم، فمنطقة جبل زغوان وجبال واسلات التي تقع بين تونس والقيروان اشتهرت بكثرة المواشي من أبقار وأغنام، كما كان في أطراف منطقة جبل نفوسة قوم من البربر يسمون رهانة يربون الإبل[٢].

وكانت الأغنام المنتشرة ببلاد المغرب الأدنى خاصة تونس تنتمي إلى سلالة توفر كميات كبيرة من الصوف، وكان صوف جربة يحظى بسمعه لا مثيل لها في بلاد

---

١) جورج مارسيه: بلاد المغرب وعلاقتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى، ترجمة محمد عبد الصمد هيكل، منشأة المعارف، الإسكندرية١٩٩١م، ص٢٠٨.

٢) الإدريسي: مصدر سابق، جـ١، ص٢٩٤، ٢٩٩، عبد الرحمن بشير: اليهود في المغرب العربي (٢٢-٤٦٢هـ/٦٤٢-١٠٧٠م)، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، الطبعة الأولى٢٠٠١م، ص٨٦، جورج مارسيه: مرجع سابق، ص٨٩ ، ٩٠، أحمد الجمال: مرجع سابق، ص١١٠.

obeikan.com

المغرب بفضل نوعيته الرفيعة[١]. وكانت منتجات تلك الإبل والأغنام خاصة الجلود أحد أهم صادرات بلاد المغرب الأدنى ؛ بالإضافة للحيوانات التي كانت تصدر لبعض المناطق حية للذبح هناك[٢].

كما انتشرت تربية النحل الذي يوفر العسل والشمع في أماكن مختلفة من البلاد، مثل جبل زغوان وفي جلولاء حيث كان عسلها مشهوراً جداً . وقد كان الشمع والعسل من المواد ذات الأهمية الكبيرة في عملية التصدير لبلاد المغرب الأدنى[٣].

ب– الزراعة :

هناك سمة مميزة للنشاط الاقتصادي في بلاد المغرب الأدنى تتمثل في ثنائية : الفلاحة والتجارة، فقد أدى النشاط الزراعي لبلاد المغرب دوراً أساسياً ومهماً في

---

١) التجاني: مصدر سابق، ص١٢٢، الحسن الوزان: وصف أفريقيا، ترجمة من الفرنسية محمد حجى، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية١٩٨٣م، جـ٢، ص٢٦٥، روبار برنشفيك: مرجع سابق، جـ٢، ص٢٣٣ – ٢٣٥.

٢) رسالة من التاجر محرز القابسي إلى التاجر الكبير باج البيزي، حول معاملات تجارية بينهم، تاريخها بعد عام٥٩٧ هـ، نشرهMichel Amari في كتابه ADiplomi Arabi Del Archivio Fiorntino، تحت رقم ١٤، ص٤٨، ٤٩، رسالة من التاجر المغربي هلال بن خليفة الجمونسي إلى التاجر البيزي الكبير باج، حول معاملات تجارية بينهم، مؤرخة بعد عام ٥٩٧هـ، نشرها Michel Amari في كتابه ADiplomi Arabi Del Archivio Fiorntino، تحت رقم ١٥، ص٥٠ – ٥٢، رسالة من التاجر إبراهيم بن خليفة الجلاد بتونس إلى التاجران البيزيان باج وفرسطان، ص٥٧، ٥٨، البكري: مصدر سابق، ص٦، هشام أبو رميله : مرجع سابق، ص٣٩٩، روبار برنشفيك: مرجع سابق، جـ٢، ص٢٧٢ – ٢٧٤.

٣) البكري: المصدر السابق،ص٧٩، الإدريسي:مصدر سابق، ص٣١٦،الهادي روجي إدريس: مرجع سابق، جـ٢، ص٢٤٥.

obeikan.com

نشاط الحركة التجارية لهذه البلاد، فقد اتخذت المنتجات الزراعية في مقدمة السلع التجارية – لاسيما الفائضة عن حاجة[١].

ولقد كانت بلاد المغرب بما فيها المغرب الأدنى تتميز بتربتها الخصبة الصالحة للزراعة[٢]، لذلك فقد كانت إفريقية تتمتع بشتى أنواع النباتات المختلفة. حيث اشتهرت أكثر من مدينة بكثرة الزراعة بها، ولئن كانت تلك الأنواع مختلفة بطبيعة الحال، بحسب الارتفاع وطبيعة الأرض والعامل البشري وكميات الأمطار وكميات المياه الجوفية[٣].

وتمثل الغلال دوماً أهم منتج زراعي في بلاد المغرب الأدنى، ويوجد في المرتبة الأولى القمح والشعير اللذان يكادان يمثلان المنتج الوحيد في كثير من المناطق[٤]. حيث كان إنتاج المغرب الأدنى منهما ضخماً[٥]. وكان أهمّ مراكز إنتاج القمح تتمثل في سهل عنّابة الخصب والمرويّ وسهل باجة– ماطر، خاصة مدينة باجة والطريق

١) ابن حوقل: مصدر سابق، ص٧٠، ٧١، الحبيب الجنحاني: مرجع سابق، ص٨٦، بان علي محمد البياتي: النشاط التجاري في المغرب الأقصى خلال القرن (٣ – ٥هـ /٩ – ١١م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية للبنات، جامعة بغداد، بغداد٢٠٠٤م، ص١٥، صباح إبراهيم الشيخلي: النشاط التجاري في بلاد المغرب خلال القرن٤ هـ دراسة من خلال كتاب صورة الأرض لابن حوقل، مجلة التاريخ العربي، جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط، العدد٦ ربيع ١٩٩٨م، ص١٣، ١٤.

٢) ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون ، دار ابن خلدون، الإسكندرية، د.ت، ص٢٥٦.

٣) البكري: مصدر سابق، ص٨ –١٠، المقدسي: مصدر سابق، ص٢٢٤ – ٢٢٦، اليعقوبي: البلدان، مطبعة ليدن١٨٩٠م، ص٢١٢، ٢١٣، جورج مارسيه: مرجع سابق، ص٨٩، ٩٠، ابن قنفذ القسنطيني: الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تحقيق محمد الشاذلي النيفر، عبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، تونس١٩٦٨م، ص١١٢، ١١٣.

٤) الحميري: مصدر سابق، ص١١، ٣٢، روبار برنشفيك: مرجع سابق، جـ٢، ص٢٢٥، ٢٢٦.

٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٤–١٩٨٥م، جـ٢١، ص١٠٢.

obeikan.com

بينها وبين طبرق، وكذلك مدينة بونة وتونس وقابس والأربس[١]، ونتيجة لضخامة إنتاج وجودة قمح المغرب الأدنى كان عنصراً مهماً من المواد التي يصدرها المغرب الأدنى لأكثر من جهة[٢].

ويعتبر الزيتون محصول رئيسي في هذه المنطقة الساحلية الطويلة، ذات الحدائق والقرى العديدة والمتشابكة، حيث كان بكل قرية معصرة للزيوت. فقد وجد الزيتون في مناطق عديدة مثل صفاقس وقابس، كما كانت القري التابعة إلي زويلة تنتج الزيتون بكثرة، وكانت مدينة طبلبة من المدن التي تكثر بها أشجار الزيتون كذلك سوسة والمنستير ولبدة[٣]. لذلك كان زيت الزيتون من أهم ما صدر المغرب الأدنى للخارج[٤].

---

١) ابن حوقل: المصدر السابق، ص٧٦، البكري: مصدر سابق، ص٥٧، الإدريسي: مصدر سابق، جا، ص٢٨٤، ٢٨٥، ٢٩٠ – ٢٩٣، المقدسي: مصدر سابق، ص٢٢٤ – ٢٢٦، مجهول: مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية، نشر وتحقيق ليفي بروفنسال، المطبعة الاقتصادية، الرباط ١٩٤١م، ص١٩٠، جورج مارسيه: مرجع سابق، ص٨٩ ،٩٠، الهادي روجي إدريس: مرجع سابق، جـ٢، ص٢٤٠، سامية مصطفي مسعد: العلاقات بين المغرب والأندلس في عصر الخلافة الأموية[٣٠٠-٣٩٩هـ/ ٩١٢-١٠٠٨م]، عين للدراسات والبحوث والإنسانية والاجتماعية، القاهرة، الطبعة الأولى٢٠٠٠م، ص١٤٧–١٤٩.

٢) ابن حوقل: مصدر سابق، ص٨٢، البكري: مصدر سابق، ص٤٧، الإدريسي: مصدر سابق، جا، ص٣١٠، ٣١١، حسن خضيري أحمد: مرجع سابق، ص١٠٧ ، ١٠٨، سامية مصطفي مسعد: مرجع سابق، ص١٧٢، زاهر رياض: مرجع سابق ، ص١٥٧، أمين توفيق الطيبي: مرجع سابق، ص١٣٨، ١٣٩.

٣) الإدريسي: مصدر سابق، جا، ص٢٨١، ٢٨٤، ٣٠٩، ابن حوقل: مصدر سابق، ص٧٢، ٧٣، البكري: مصدر سابق، ص٨–١٠، المقدسي: مصدر سابق، ص٢٢٤ – ٢٢٦، التيجاني: مصدر سابق، ص٢١٨، ٢١٩، مارمول: مصدر سابق، ص٦٩، جورج مارسيه: مرجع سابق، ص٨٩، ٩٠، عبد الملك بكاي: التجارة في عهد بني زيري بإفريقية ٣٦٢ - ٥٤٣هـ/٩٧٢-١١٤٨م، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الحاج لخضر باتنة، الجزائر ٢٠٠٥-٢٠٠٦م، ص٨.

٤) البكري: مصدر سابق، ص٢٠، الزهري: مصدر سابق، ص١٣١، مجهول: الاستبصار، ص١١٦، ابن خلدون: العبر، جـ٦، ص٢١٠، ٢١١، التيجاني: مصدر سابق، ص٢١٨، ٢١٩.

obeikan.com

وكانت زراعة النباتات النسيجية كثيرة ومنتشرة، وقد أشارت المصادر إلى زراعة الكتان في بونة، وبعض المدن الأخرى مثل ضواحي عنابة، كما كان القطن يزرع في المسيلة ونقاوس وطبنة وقفصة وقرطاجنة[١]. ولا ينبغي أن نهمل استغلال الموارد الطبيعية المتمثلة في الحلفاء والأسل والنخل البري، وقد كانت تستخدم في صناعة نسيج الحلفاء والسلال[٢]. كما كان شجر التوت له أهمية خاصة فيما تنتجه بلاد المغرب من أنسجة حيث أنه غذاء دود القز الذي ينتج الحرير، وفي هذا السياق يذكر البكري أن شجر التوت كان كثيراً في مدينة قابس وذات نوعية جيدة يساهم في إنتاج حريراً مميزاً من حيث الجودة عن غيره من الحرير[٣].

أما التين فقد زرع في مناطق متعددة فكانت قلشانة من مناطق إنتاج التين الأخضر، ومذكورة من المناطق التي يجلب منها التين ويكون زبيباً وهو أغلى من غيره من الأنواع والأكثر طلباً[٤]. وكان اللوز المفروك الموجود في تونس من أطيب

١) الإدريسي: مصدر سابق، جـ١، ص٢٩١، ابن حوقل: مصدر سابق، ص٧٥، الهادي روجي إدريس: مرجع سابق، جـ٢، ص٢٤٨، عبد المالك بكاي: مرجع سابق، ص٨.

٢) الإدريسي: مصدر سابق، جـ١، ص٢٨٥، روبار برنشفيك: مرجع سابق، جـ٢، ص٢٣٢.

٣) البكري: مصدر سابق، ص١٧.

٤) المقدسي: مصدر سابق، ص٢٢٤ – ٢٢٦، البكري: مصدر سابق، ص١٩، ٥٧، الإدريسي: مصدر سابق، جـ١، ص٢٧٩، مارمول : مصدر سابق، جـ٣، ص٦٥، الهادي روجي إدريس: مرجع سابق، جـ٢، ص٢٤٣،٢٤٢، عبد المالك بكاي: مرجع سابق، ص٨.

obeikan.com

الثمار وأنفسها[١]. وكانت تلك المنتجات تدخل في صادرات المغرب الأدنى للخارج أيضاً[٢].

كما اشتهرت بلاد المغرب الأدنى بزراعة النخيل ومنتجاته من التمور، خاصة مدن مثل توزر وبسكرة وقفصة وباقي بلاد الجريد عامةً وكذلك قابس[٣]. إلا أن النخيل لم يكن يزرع من أجل تموره فحسب، إذ كانت تستعمل جذوعه وأليافه وسعفه لصنع الحبال والسلال التي تستخدم في مجال التجارة البحرية. إلا أن التمور كانت أهم منتجات النخيل التي كانت تصدر لأكثر من جهة خارجية[٤].

١) المقدسي: مصدر السابق، ص٢٢٤ – ٢٢٦، البكري: مصدر السابق، ص٤١، مجهول: الاستبصار، ص١٢١، الهادي روجي إدريس: مرجع سابق، جـ٢، ص٢٤٣،٢٤٢، عبد المالك بكاي: مرجع سابق، ص٨.

٢) البكري: مصدر السابق، ص٢٠، ٤٧، سامية مصطفي مسعد: مرجع سابق، ص١٧٣، نريمان عبد الكريم أحمد: مرجع سابق، ص٢١٩، ٢٢٠.

٣) البكري: مصدر سابق، ص٨-١٠، ١٢، الحميري: مصدر سابق، ص٢٩٩، ٥٧٨، الادريسي: مصدر سابق، جـ١، ص٣٠٩،٢٧٨، أبو القاسم الزياني: الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور براً وبحراً، تحقيق عبد الكريم الفيلالي، دار نشر المعرفة، الرباط، الطبعة الثانية١٩٩١م، ص٦٨، مجهول: مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية، ص١٩٠، عبد المالك بكاي: مرجع سابق، ص٩،٨،

قفصة وبلاد الجريدة عموماً هي جزء من إقليم قسطيلية، وهي منطقة ممتدة الأطراف ذات حدود غير مضبوطة تضم الجريد ونفزاوة، بل حتي قفصة وحامة قابس، انظر: الحميري: مصدر سابق، ص٤٨٠، ٤٨١.

٤) البكري: مصدر سابق، ص٨-١٠،٤٧، الإدريسي: مصدر سابق، جـ١، ص٣١٠، ٣١١، روبار برنشفيك: مرجع سابق، جـ٢، ص٢٢٩، حسن خضيري أحمد: مرجع سابق، ص١٠٧، ١٠٨.

obeikan.com

وكان المغرب الأدنى مشهوراً بالبستنة وزراعة البساتين[١]. وكان يوجد بهذه البساتين عدد كبير من النباتات العطرية والطبية والصبغية. وقد ذكرت المصادر أسماء بعض تلك النباتات، مثل نباتات الكمون والكروية والينسون، التي كانت تنبت في ضواحي قرطاج وتقيوس وقفصة وسبيبة وفي جزر قرقنة والقرطم في قرطاج. وكان الناس يزرعون الحناء في تقيوس وتوزر وقابس، والزعفران في ضواحي أبه[٢]. وبالطبع كانت تلك المواد تدخل في مجال الصادرات للمغرب الأدنى.

ونتيجة لحتمية الجغرافية فقد اثر النشاط الزراعي في المغربين الأوسط والأقصى على النشاط التجاري للمغرب الأدنى خاصة البحري منه. فإذا ما علمنا أن الإنتاج الزراعي في باقي أقاليم المغرب كان واسعاً ومتنوعاً، سوف يتضح ذلك من خلال قائمة التبادل التجاري الداخلي والخارجي. ففي مصادرنا ما يؤكد على أن الإنتاج الزراعي كان واسعاً في المغربين الأقصى والأوسط. فقد أشارت المصادر إلى تمتع كثير من المدن والقرى المغربية بوفرة في المزروعات[٣] منها مدينة تاهرت[٤] ومدينة

١)ابن حوقل: مصدر سابق، ص٨٥،٨٤، المقدسي: مصدر سابق، ص٢٢٤–٢٢٦، ابن خلدون: العبر، جـ٦، ص٤٠٤، الحميري: مصدر سابق، ص٢٩٩، احمد الطويلي: في الحضارة العربية التونسية، دار المعارف بسوسة، تونس د.ت، ص١٣.

٢) البكري: مصدر سابق، ص٣٢، الإدريسي: مصدر سابق، جـ١، ٢٧٧- ٢٧٩، ٣٠٤، الهادي روجي إدريس: مرجع سابق، جـ٢، ص٢٤٨، روبار برنشفيك : مرجع سابق، جـ٢، ص٢٣١.

٣)الزهري: مصدر سابق،ص١١٤، الإدريسي: مصدر سابق، ص٧٦، ٢٥٦، بان علي محمد البياتي: مرجع سابق، ص١٥.

٤) الحميري: مصدر سابق، ص١٢٦، ١٢٧، سامية مصطفي مسعد: مرجع سابق، ص١٤٧ – ١٤٩،

ومدينة تاهرت: في المغرب الأوسط على طريق المسيلة من تلمسان، انظر الحميري: مصدر سابق، ص١٢٦، ١٢٧.

obeikan.com

وهران[١] ومكناسة[٢] وتلمسان[٣] وأغمات ومدينة ندرومة [٤] وتارودانت بإقليم السوس[٥].

وقد عرفت تلك المدن إنتاج العديد من المحاصيل الزراعية منها ما كان يدخل في عملية الاستيراد والتصدير بينها وبين مدن المغرب الأدنى، ومن أهم هذه المحاصيل الغلات والبقوليات خاصة القمح والشعير وكذلك الزيتون والجوز واللوز والليمون والبلح وقصب السكر[٦]. واحتوت بساتين المغرب على أنواع

---

١) الإدريسي: مصدر سابق، جا، ص٢٧١،
وهران: مدينة ساحلية حصينة بالمغرب الأوسط، كثيرة البساتين، بناها جماعة من الأندلسيين عام٢٩٠هـ، انظر: الزهري: مصدر سابق، ص١١٣.

٢)مدينة مكناسة: تقع على بعد أربع عشرة مرحلة شرق مرّاكُش، وهي مدينتان صغيرتان، اختطّ إحداهما يوسف بن تاشفين والأخرى قديمة، وأكثر شجرها الزيتون، انظر: الزهري: مصدر سابق، ص١١٥، الحميري: مصدر سابق، ص٥٤٤.

٣)مدينة تلمسان: قاعدة بلاد المغرب الأوسط، تبعد عن وهران مرحلتان، انظر: مجهول: الاستبصار، ص١٧٦.

٤) ابن حوقل: مصدر سابق، ص٩٠، مؤلف مجهول: الاستبصار، ص١٣٥، ١٨٧، الحميري: مصدر سابق، ص٥٤٤، هشام أبو رميلة: علاقات الموحدين بالممالك النصرانية والدول الإسلامية في الأندلس، دار الفرقان، عمان– الأردن، الطبعة الأولى١٩٨٤م، ص٣٩٠،٣٨٩.
ومدينة ندرومة: مدينة في طرف جبل تاجرا، كثيرة الزرع، انظر الحميري: مصدر سابق، ص٥٧٦.

٥) الزهري: مصدر سابق، ص١١٧، الحميري: المصدر السابق، ص٣٣٠.

٦) الزهري: المصدر السابق، ص ١١٤، الإدريسي: المغرب، ص٦١، ٦٢، ٧٦، ٢٦٩، ابن غازى: الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، تحقيق عطا ابو رية وسلطان بن مليح الأسمري، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ٢٠٠٧م، ص٣،٤، ١٠، الحميري: مصدر سابق، ص٥٤١، مؤلف مجهول: الاستبصار، ص٢٠٧، حسن على حسن: مرجع سابق، ص٢٤٥، ٢٤٦، هشام أبو رميلة: مرجع سابق، ص٣٩٠.

Obeikan.com

مختلفة من الورود والأزهار والأعشاب، فقد كانت الأزهار الموجودة بفاس بأنها جيدة جداً[١]؛ واشتهرت سجلماسة بتصدير الكمون والكروياء والحناء إلى سائر بلاد المغرب وغيرها[٢]. وكانت هذه السلع تستوردها بلاد المغرب الأدنى من باقي بلاد المغرب عن طريق البر والبحر[٣].

كما أن النشاط الزراعي في حوض البحر المتوسط عامة قد اثر على حركة تبادل السلع وتنوعها. فقد كانت بلاد المغرب الأدنى مجاورة للديار المصرية، وتكمن أهمية مصر الزراعية في الجمع بين سمتين، الأولى هي أن عدداً من العوامل مكنت مصر من تصدير فائض زراعي كبير مثل توافر مياه الري وكثرة الإنتاج الزراعي وجودته خاصة فيما يتعلق بالقمح والشعير والقطن والكتان، وسهولة نقل هذا الإنتاج خاصة عن طريق المواصلات النهرية. والسمة الثانية هي أن مصر كانت

١) ابن القاضى المكناسى: جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الإعلام بمدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة، الرباط ١٩٧٣م، جـ١، ص٤٤.

مدينة فاس: من مدن المغرب الأقصى، وهي عبارة عن مدينة مقسمة لمدينتين، عدوة الأندلسيين وعدوة القرويين، وبعد أن استولى اللمتونيون على المنطقة قرروا ضم سكان المدينتين في واحدة، انظر: الجزنائي: جني زهرة الاس في بناء مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط ١٩٦٧م، ص٢٤ ، ٢٥.

٢) الإدريسي: مصدر سابق، جـ١، ص٢٢٦.

ومدينة سجلماسة: تقع في وسط الصحراء، بين تلمسان وفاس ومراكش، وبينها وبين البحر المتوسط خمسة عشرة مرحلة، وبينها وبين غانة مسيرة شهرين، انظر: البكري: مصدر سابق، ص١٤٨، الحميري: مصدر سابق، ص٣٠٥.

٣) الزُهري: مصدر سابق، ص١١٧، ١١٨، الإدريسي: مصدر سابق، جـ١، ص٢٥٢، ٢٥٨، ٢٥٩،٢٦٩، عز الدين موسي: النشاط الاقتصادي، ص٣٢٤، ٣٢٥.

obeikan.com

مجبرة على التخلي عن قسم من فائضها الزراعي، بسبب افتقار البلد إلى عدد من الموارد الأساسية الأخرى وبصورة خاصة من الأخشاب والمعادن[١].

وكانت جزيرة صقلية وهي أقرب منطقة من أوروبا إلى تونس كثيرة الفواكه والزرع، خاصة القطن والجوز واللوز والقسطل والفستق والبندق، وهذه المزروعات دخلت بشكل مباشر في تجارة الجزيرة مع بلاد المغرب الأدنى[٢].

كما تميز الأندلس بإنتاجه الزراعي من الشعير والقمح والقنب والزيتون والثمار، وكانت المناطق الثلاث غرناطة وشرق الأندلس والوادي الكبير الأكثر ذكراً من قبل الجغرافيين بسبب إنتاجها الزراعي، وهناك مناطق أخري، تظهر في حساب طبيعة الأندلس ألا وهي أودية الأنهار الخصبة، من جهة أخرى يجب الإشارة إلى أن النشاط الزراعي رغم ازدهاره كان لا يمنع الأندلس المنتج من أن يستورد بانتظام السلع الزراعية وخاصة الحبوب[٣]، كما أن جزر البليار لاسيما جزيرة يابسة كانت تشتهر بكثرة الثمار والزرع لاسيما اللوز والتين والعنب[٤] . وبالطبع كان إنتاج الأندلس من

---

١) الإدريسي: مصدر سابق، جـ١، ص٣٨٣ – ٣٤٣، ابن مماتي: كتاب قوانين الدواوين، تحقيق عزيز سوريال عطية، مكتبة المدبولى، القاهرة، الطبعة الأولى١٩٩٠م، ص٧٤، ٢٥٦، ٢٥٧ – ٢٦٦، المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٧ م، جـ١، ص٢٢١، جوزيف شاخت، كليفورد بورورث: مرجع سابق، جـ١، ص٢٨٣ – ٢٨٥.

٢) الزُهري: مصدر سابق، ص١٣١، القزويني: مصدر سابق، ص٢١٦.

٣) ابن حوقل: مصدر سابق، ص١٠٤، ١٠٥، ١١١، العذري: نصوص عن الأندلس (من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، منشورات معهد الدراسات الإسلامية، مدريد د ت، ص٢٢، ٩٦.

٤) الزُهري: مصدر سابق، ص١٢٨، ١٢٩.

تقع جزر البليار (ميورقة ومنورقة ويابسة)في شرق الأندلس، انظر: الحميرى: مصدر سابق، ص٥٦٧، ٥٦٨.

obeikan.com

تلك المحاصيل يدخل جزء منه في نطاق النشاط التجاري البحري لبلاد المغرب الأدنى[١].

وإذا انتقلنا لدائرة أوسع أي لمنطقة الشرق الأقصى على اعتبار أن سلع تلك المنطقة وصلت إلى بلاد المغرب، وبالطبع كان من بين هذه السلع منتجات زراعية، نجد أن تلك البلاد اشتهرت بزراعات خاصة، مثل التوابل لاسيما الفلفل والأعشاب الطبية، فقد كانت سواحل الهند والصين مصدراً رئيسياً للتوابل خاصة الفلفل في مناطق العالم المعروفة آنذاك، كما اشتهرت تلك المناطق بأنها مصدراً مهماً للنارجيل أو جوز الهند والقرنفل والرواند المستخدم لعلاج الكبد[٢].

جـ – الصناعة:

لقد انتشرت في بلاد المغرب الأدنى منذ بداية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي صناعات عدة حتى نهاية القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي[٣]. مثل صناعة النسيج التي كانت تمثل أهم الصناعات انتشاراً حتى نهاية فترة البحث. ويمكننا القول مبدئياً أن جميع المدن المتوسطة أو الكبرى مثل تونس وسوسة والمهدية وقابس وجزيرة جربة[٤] كانت تضم عدداً من الجدالين والنساجين والقصارين وخياطي الملابس، وقد كانت النساء في كل مكان حتى البادية يغزلن

١) العذري: مصدر سابق، ص٩٦، أوليفيا ريمي كونستبل: التجارة والتجار في الأندلس، ترجمة فيصل عبد الله، مكتبة العبيكان، الرياض٢٠٠٢م، ص ٢٤٩.

٢) الإدريسي: مصدر سابق، جـ١، ص١٩٠ – ١٩٢، ٢٠٢، ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة المسماة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، تحقيق كرم البستاني، دار صادر، بيروت ١٩٩٢ م، ص ٥٧٣، ٦١٥، ٦٢٢، ٦٢٣.

٣) ابن قنفذ القسنطيني: مصدر سابق، ص ١١٢، روبار برنشفيك : مرجع سابق، جـ٢، ص٢٤١.

٤) جزيرة جربة: تقع بالقرب من شواطئ مدينة قابس بالمغرب الأدنى، ويتصل بها من بعض نواحيها جزيرة زيزو، وبينها وبين البر نحو ميل، انظر: الحميري: مصدر سابق، ص١٥٨.

وينسجن الأقمشة والأغطية والزرابي. لذلك نجد أن منتجات صناعة المنسوجات كانت أحد أهم أركان السلع التي تصدرها بلاد المغرب الأدنى عن طريق النشاط التجاري البحري لكافة المناطق التي دخلت في نطاق ذلك النشاط، وخاصة الملابس الكتانية والصوفية والحريرية والثياب المطرزة[١].

ومن الصناعات التي ظهرت في افريقية صناعة دباغة الجلود والتي كانت لها أهمية خاصة في التجارة البحرية، فمثلاً مدينة قابس اشتهرت بكثرة وجود مدابغ الجلود ويتجهز بها منها وإليها[٢].

كما كانت المواد الأولية التي تحولها الصناعة في المغرب الأدنى، تعد من أهم منتجات البلاد التي أشرنا إليها آنفاً. ولم تكن إفريقية تستورد من الخارج سوى بعض المواد التكميلية المتمثلة في النسيج والمعادن، تضاف إليها مع ذلك شتى أنواع المواد الصبغية المستوردة، هي أيضاً لتلبية حاجات الصناعة[٣].

وفي السياق نفسه نجد أن النشاط الصناعي لبلاد المغربين الأدنى والأقصى قد أنعكس بالطبع علي النشاط التجاري لاسيما البحري منه لبلاد المغرب عامه والمغرب الأدنى علي وجه الخصوص، فقد ظهرت عدة صناعات منها صناعة

١) الزهري: مصدر سابق، ص١٠٩، الإدريسي: مصدر سابق، جا، ص٢٧٩، ٢٨٢، التيجاني: مصدر سابق، ص٢٦، ١٢٢، البكري: مصدر سابق، ص٣٦، ٧٨، مجهول: الاستبصار، ص١٧، روبار برنشفيك: مرجع سابق، جـ٢، ص٢٤١، ٢٤٢، القصّار هو منظف الأقمشة، انظر: روبار برنشفيك: المرجع السابق، جـ٢، ص٢٤١.

٢) الإدريسي: مصدر سابق، جا، ص٢٧٩.

٣) ابن حوقل: مصدر سابق، ص١٠٩، ١١٠، الزُهري: المصدر السابق، ص١١٣، ١٤، ١١٧، ١١٨، الإدريسي: مصدر سابق، جا، ص٢٤١، ٢٥٢، ٢٥٨، المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٨٨م، جـ٢، ص٦٨، جـ٤، ص٢٠٧، عز الدين موسي: النشاط الاقتصادي، ص٣٢٤، ٣٢٥، روبار برنشفيك: المرجع السابق، جـ٢، ص٢٤٠.

السفن وصناعة الزجاج والنسيج وصناعة أدوات النحاس والحديد[١]، والصناعات المرتبطة بركوب الخيل[٢]وصناعة الصابون وصناعة دباغة وصباغة الجلود وصناعة الكاغد وصناعة الفخار وصناعة الغزل وطحن الغلال وصناعة الخبز[٣]. ويرجح دخول منتجات هذه الصناعات في نطاق النشاط التجاري البحري للمغرب الأدنى .

وإذا انتقلنا للدائرة الأوسع المحيطة بالمغرب الأدنى أي حوض البحر المتوسط، نجد أن النشاط الصناعي فيه قد ساهم في تحريك وتنشيط التجارة البحرية بما فيها التجارة مع المغرب الأدنى، فمثلاً كانت صناعة النسيج بجزيرة صقلية ذات شان عظيم، فقد أنتجت بها أنواع رقيقة منه؛ حتى أن بعض عباءات أبناء الخليفة المعز كانت ترسل من صقلية إلى مصر[٤].

وكانت جميع مدن الأندلس على البحر عامرة مشحونة بالمرافق التي يفتخر بها أهل النواحي في بلادهم ومنابرهم[٥]. وقد انتشرت صناعة المنسوجات بالأندلس،

---

٢) مجهول: الاستبصار، ص١٧٧، عبد الواحد المراكشي: وثائق المرابطين والموحدين، تحقيق حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولى١٩٩٧م، ص٢٢٩، ابن أبى زرع: مصدر سابق، ص٢٠٠، ٢٠١، الحميري : مصدر سابق ، ص٤٣٥.

٣) ابن سعيد: كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، منشورات المكتب التجاري، بيروت – لبنان ١٩٧٠م، ص١٤٠.

٤) مجهول: رسالة في ذكر من أسس فاس، مخطوطة بدار الكتب والوثائق القومية، ح ٩٧٣٢ ميكروفيلم رقم ١٠٩٨٨، قام بنسخ هذا المخطوط عبد السلام الغرابلى الجيلانى، القاهرة، ورقة ٥٧، الجزنائى: مصدر سابق، ص٤٤، محمد زنيبر: المغرب في العصر الوسيط [الدولة-المدينة –الاقتصاد]، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى ١٩٩١م، ص٣٧٣ ، ٣٧٤.

٥) ابن خلدون: العبر، جـ٦، ص ٢١١، أرشيبالد. ر. لويس: مرجع سابق، ص٣٣١، ٣٣٢.

٦) ابن حوقل: مصدر سابق، ص١٠٥، ١٠٦.

obeikan.com

حيث تفنن أهل الأندلس في صناعة الملابس والصديرات المحلاة بالفراء وانتشرت هناك صناعة الجلد ودباغته، وصنعت من الجلود السروج والأحذية والصنادل الخفيفة للنساء والرجال. وكانت توجد في كل مدينة صناعات تتصل من قريب أو من بعيد بالأثاث والأدوات المنزلية وصناعة أدوات البناء، وبلاط الخزف الممهرة بالمينا[١].

أما صناعة الورق فتميزت بها مدينة شاطبة، وكان يعمل بها من الكاغد ما لا يوجد له نظير في العالم واشتهرت مدن مثل ألمرية بصناعة الزجاج والفخار المزجج والصناعات المعدنية كالسكاكين والمقاصات المذهبة، وما شابه ذلك من أدوات العروس، كما ذاعت شهرة مدن أندلسية أخرى بعمل البسط الفاخرة؛ وكانت هذه الصناعات سبباً رئيسياً في مد حركة التجارة البحرية بين الأندلس والمغرب الأدنى بالعديد من المنتجات. خاصة نتيجة وفرة المنتجات الزراعية بالأندلس حتى صار هناك فائض في الإنتاج منخفض الأسعار، وأصبح هناك فائض في المصنوعات الحريرية والكتانية والصوفية والجلدية والخشبية وغيرها من المصنوعات، مما جعل الحكام هناك يهتمون بتصدير هذه السلع إلي داخل وخارج الأندلس[٢].

كما استمرت مصر في تلك الفترة محتفظة بأهميتها الصناعية ؛ فكانت مدينة تنيس التي تقع على ساحل البحر المتوسط تشتهر بالأقمشة الكتانية الملونة. واستمرت

---

١) المقري: مصدر سابق، جـ١، ص١٩٨، جـ٢، ص٦٨، السقطي: كتاب في آداب الحسبة، تحقيق ليفي بروفنسال، مطبعة إرنست لورو، باريس١٩٣١م، ص٦٤، عصمت عبد اللطيف دندش: الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين [عصر الطوائف الثاني ،٥١٠-٥٤٦هـ/١١١٦-١١٥١م] ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٨م، ص١٨٦، ١٨٧.

٢) المقري: مصدر سابق، جـ١، ص١٩٨، جـ٢، ص٦٨، جـ٤، ص٢٠٧، ابن حوقل: مصدر سابق، ص١٠٩، ١١٠، سامية مصطفي مسعد: مرجع سابق، ص١٧١، عصمت عبد اللطيف دندش: مرجع سابق، ص٢٠٧، ٢٠٨.

obeikan.com

دور الطراز – دور صناعة الأقمشة وحياكتها – في مصر مصدراً لتلك المنتجات التي كانت من أهم السلع التي دخلت في حيز التجارة البحرية للمغرب الأدنى[١].

كما كانت الصناعات والحرف في الشرق الأقصى لاسيما في الصين ذات شهرة كبيرة من حيث دقتها وجودتها، خاصة فيما يتعلق بالحرير والفخار الصيني والذي وصل إلى بلاد المغرب حيث ذاع صيته على مستوى العالم انذاك[٢].

د– التجارة البرية :

تُعد التجارة البرية في بلاد المغرب عامة والمغرب الأدنى خاصة، بمثابة الوريد الذي يمد التجارة البحرية بما تحتاجه من سلع، كما كانت هي الحاضنة الأولي لطرق المعاملات التجارية ووسائلها ومقاييسها والتي استُخدمت فيما بعد في التجارة البحرية.

فقد نشطت الحركة التجارية الداخلية البرية في بلاد المغرب الأدنى منذ عهد الزيريين، حيث كان للمغرب الأدنى مراكز تجارية برية لها دورها في تزويد المراكز الساحلية ببضائع الصحراء، وكذلك في توزيع ما يأتي لها من بضائع من مدن الساحل في تلك المناطق. فقد غدت القيروان أهم مدينة تجارية بالإضافة إلى عظم أهميتها من الناحية الصناعية[٣]. كذلك كانت نفزاوة من المدن الحافلة بالأسواق[٤]. أما أهمية زويلة فترجع إلى أنها أول حد بلاد السودان الأوسط وبها أسواق يجتمع بها

---

١) ناصر خسرو: مصدر سابق، ص٩٢، حامد عمار: علاقات مصر بالدول الإفريقية في العصور الوسطي، مكتبة الدار العربية الكتاب، القاهرة ١٩٩٦م، ص ٦٨، ٦٩، أحمد إسماعيل الجمال: مرجع سابق، ص١٤٨.

٢) الإدريسي: مصدر سابق، جا، ص٢١٠، ٢١١، ابن بطوطة: مصدر سابق، ص٦٣٠،٦٢٨.

٣)الإدريسي: مصدر سابق، جا، ٢٨٤، ابن خلدون:العبر،جـ٦، ص٢١٠، ٢١١، أرشيبالد: مرجع سابق، ص٣٣٢،٢٣١.

٤) الحميري: مصدر سابق، ص٥٧٨.

obeikan.com

التجار من كل جهة، حيث كانت ملتقي طرق القوافل، وهذه هي مقومات المدن التجارية المزدهرة[١].

كما كانت مدينة غدامس في غاية الأهمية في الفترة الزمنية للدراسة، إذ كانت تمثل بوابة الصحراء ونقطة الاتصال بين السودان من جهة وافريقية ومصر من جهة أخري، وكانت مزدهرة بفضل التجار والحجيج[٢]. كما لعبت أوجلة دور الوسيط في حركة التبادل التجاري بين الشمال والجنوب، فمنها كانت تصل بضائع الشمال إلى السودان الأوسط عن طريق الواحات التي تقع في وسط الصحراء الكبرى وتصل بضائع الجنوب إلى الساحل عن طريق أوجلة[٣]. وكانت توزر تمثل قاعدة قسطيلية – أي منطقة الجريد– وكان يتردد على توزر عدد غفير من التجار، وكانت تصدر بالخصوص الأقمشة الصوفية[٤]. أما قلعة بني حماد فكانت مقصد التجار وبها تحل الرحال من العراق والحجاز ومصر والشام وسائر بلاد المغرب[٥].

وقد ساعدت تلك المدن الصحراوية على أداء دورها في دعم النشاط التجاري البحري في مدن الساحل، الازدهار الزراعي والصناعي الذي عاشته خلال فترة البحث، حيث صارت الأسواق التجارية بها تموج بحركة بالبيع والشراء، وفى نقل المتاجر من مدينة إلى أخرى في ظل الأمن والاستقرار الذي ساد المنطقة. وانتظمت

---

١) الإدريسي: مصدر سابق، جـ١، ص٣١٣، سعيد علي حامد: مرجع سابق، ص١٨٧.

٢) ياقوت الحموي:مصدر سابق، جـ٤، ص١٨٧، الحميري: مصدر سابق، ص٤٢٧، سعيد علي حامد: مرجع سابق، ص١٨٤.

٣) الإدريسي: مصدر سابق، جـ١، ص٣١٢، سعيد علي حامد: مرجع سابق، ص١٧٠.

٤) البكري: مصدر سابق، ٤٨، ٤٩، الهادي روجي إدريس: مرجع سابق، جـ٢، ص٧٥.

٥) البكري: المصدر السابق، ٤٩.

وقلعة بني حماد: مدينة بالمغرب الأوسط، بينها وبين مدينة بجاية مسيرة أربعة أيام. وقد تطورت تلك المدينة وتحضرت عندما خربت القيروان، انظر: الحميرى: المصدر السابق، ص٤٦٩، ٤٧٠.

obeikan.com

الأسواق بتلك المدن بطريقة تبدو متشابهة بباقي الأسواق التجارية في باقي المدن الإسلامية الأخرى، حيث انفردت كل صناعة بناحية معينة من السوق كسوق النحاسين، وامتلأت الأسواق بالبضائع والمنتجات. كل هذا صب في نهاية المطاف في تنشيط حركة التجارة الخارجية[١].

من جانب آخر تمثل طرق التجارة البرية عاملاً أساسياً في ازدهار التجارة فكلما زادت الطرق وعم بها الأمن نشطت الحركة التجارية، ويلاحظ على الطرق التجارية العظمى في العصر الإسلامي أنها كانت تبدأ أو تنتهي عند موانئ نهرية أو بحرية حيث تفرغ فيها البضائع أو تحمل منها، وتعتبر الطرق التجارية العصب الرئيسي للتجارة وبها يمكن أن تزدهر أو تدهور. وقد توفر لبلاد المغرب الأدنى بشكل خاص وبلاد المغرب عاماً شبكة من الطرق التجارية عبرت جميع أنحاء البلاد، وقد سهلت هذه الشبكة من الطرق البرية، قدوم البضائع والسلع إلى مراكز التجارة البحرية سواء في داخل المغرب الأدنى أو من خارجة[٢].

ويمكن تقسيم الطرق البرية إلى مجموعتين رئيسيتين، المجموعة الأولي تشمل المراحل المختلفة لطريق الساحل، أما المجموعة الثانية فهي الطرق الصحراوية الرابطة بين بلاد المغرب الأدنى وبلاد المغربين الأوسط والأقصى وبلاد السودان.

---

١) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة {تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين}، تحقيق عبد الهادي التازي،دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة١٩٨٧م،ص٣٥٣،٣٥٢، مؤلف مجهول: الاستبصار، ص١٢٠،١١٩، جمال طه: مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين [٤٤٨هـ١٠٥٦م إلى٦٦٨هـ/١٢٦٩م]، دار الوفاء،الإسكندرية٢٠٠١م، ص٢٣٧، ٢٣٨.

٢) شوقي عبد القوى عثمان حبيب: التجارة بين مصر وأفريقيا في عصر سلاطين المماليك (٦٤٨ – ٩٢٢ هـ/١٢٥٠ – ١٥١٧م)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة٢٠٠٠م، ص٦٥، عبد الملك بكاي: مرجع سابق، ص٣٧، سامية مصطفي مسعد: مرجع سابق، ص١٥١، صباح إبراهيم الشيخلي: مرجع سابق، ص٢٨، ٢٩.

obeikan.com

أما المجموعة الأولى فهي مراحل الطريق الساحلي ويسمي "طريق الجادة"، وهذا الطريق يقطع السهل الساحل المغربي ابتداءً من برقة إلى البحر المحيط الأطلسي من ناحية الغرب، كما يربط هذا الطريق بلاد المغرب الأدنى بمصر من ناحية الشرق ، وكان هذا الطريق الذي يربط بين بلاد المغرب الأدنى ومصر ما هو إلا مرحلة أولي من طريق دولي يربط بلاد المغرب الأدنى ببلاد المشرق الإسلامي، حيث يمتد هذا الطريق بعد مصر حتى يصل إلى دمشق ومنها إلى بغداد ماراً بحلب[١].

أما المجموعة الثانية من الطرق البرية فهي مجموعة الطرق الصحراوية التي تربط مدن المغرب الأدنى بعضها ببعض أو تربط مدن المغرب الأدنى بنظيراتها في المغربين الأوسط والأقصى والسودان الغربي، أما الطرق التي كانت تربط مدن المغرب الأدنى بعضها ببعض، فهي الطرق الفرعية تمتد بين مدن منطقة المغرب الأدنى نفسها، وتظهر كثافة هذه الطرق الفرعية عند القيروان، حيث ترتبط الأخيرة مع قابس بطريق، ومع طرابلس بثانية ومع تونس وجزيرة بنى مزغناي بثالثة[٢].

أما الطرق التي تربط مدن المغرب الأدنى بنظيراتها في المغربين الأوسط والأقصى والسودان، فهي طرق رئيسية تمتد من المغرب الأدنى إلى أقصى بلاد المغرب والسودان عبر الصحراء الكبرى، فهناك طريق يبدأ من القيروان بالمغرب الأدنى وينتهي بتاهرت، وآخر يبدأ من القيروان أيضاً مروراً بالأربس وجلولا

---

١) البكري: مصدر سابق، ص٤٣٢، ١٠٤،الإدريسي:مصدر سابق، ص٣١٧، ٣١٨، روبار برنشفيك: مرجع سابق، جـ٢، ص٢٤٨، حسن خضيري احمد: مرجع سابق، ص٩٧، بان علي محمد البياتي: مرجع سابق، ص٥٠، ٤٩، عبد الرحمن بشير: مرجع سابق، ص١٠٦.

٢) البكري: مصدر سابق، ص١٩، ٢٠، ٦٦، الإدريسي: مصدر سابق، جـ١، ص ٢٩٤– ٢٩٦، صباح إبراهيم الشيخلي: المرجع السابق، ص٢٨، ٢٩،

وجزائر بني مزغناي: من مدن المغرب الأوسط تبعد عن مدينة شرشال سبعون ميلاً، وهي مدينة قديمة عامرة وأسواقها قائمة، وزراعتها الحنطة والشعير وتربية المواشي من البقر والغنم، انظر: الحميري: مصدر سابق، ص١٦٣.

obeikan.com

وينتهي بالمسيلة، وهناك طريق آخر يبدأ من قفصة بالمغرب الأدنى وينتهي بفاس في المغرب الأقصى مروراً بالمسيلة[١].

ومن طرق التجارة البرية الخارجية التي كانت تربط المغرب الأدنى ببلاد السودان عبر الصحراء[٢]، طريق صحراوي بين تادمكة[٣] والقيروان يمر بأورجلان وقسطيلية، وهناك طريق آخر بين تادمكة وغدامس ومنها إلى جبل نفوسة ثم يمتد إلى طرابلس، وهناك طريق أخر يبدأ من غانة إلى أودغست إلى ورجلان[٤].

وقد أثرت تلك الشبكة من الطرق في جلب الكثير من البضائع من محيط المغرب الأدنى إلى مراكزه التجارية البحرية لتصديرها والعكس كذلك، وذلك من خلال القوافل التجارية، فكانت رحلات القوافل عبر هذه الطرق البرية، في فصل الشتاء حيث تعمل ثلاثة قوافل برية تمر من سجلماسة، وتصل هذه القوافل إلي القيروان وطرابلس وبرقة حتى مصر هذا فضلاً عن قافلتين في فصل الصيف، وبالنسبة للطريق الصحراوي فكان يتعذر على التجار المسير فيه في غير فصل الشتاء نتيجة لهبوب رياح السيروكو[٥]، التي كانت تثير الكثير من الرمل وتغطي الآبار[٦].

---

١) ابن حوقل:مصدر سابق،ص٨٤-٨٧،الإدريسي:مصدر سابق، ص٢٩٥،٢٩٤،صباح إبراهيم الشيخلي:مرجع سابق، ص٢٢.

٢) ابن حوقل: المصدر السابق، ص٨٧ ، ١٠٠، بان علي محمد البياتي: مرجع سابق، ص٥٥،٥٣.

٣) تادمكة: من مدن بلاد السودان، وأهل تادمكة بربر مسلمون من الطوارق، أنظر: الحميري: مصدر سابق، ص١٢٨.

٤) البكري: مصدر سابق، ص٨٩، ٩٩، ١٨٢.

٥) رياح السيروكو: هي رياح محلية تهب على بلاد المغرب العربي في الفترة الممتدة من مايو حتى سبتمبر وتكون قادمة من الصحراء الكبرى باتجاه الشمال وهي جافة ومحملة بالغبار والرمال، وتسمى الشهيلي في تونس وفي الجزائر بالسيروكو وفي ليبيا بالقبلي وفي المغرب بالشرقي وفي جزر البليار تسمى كلها، انظر: يوسف عبد المجيد فايد: جغرافية المناخ والنبات، دار النهضة العربية، القاهرة د.ت، ص٦١، ٦٢.

٦) حسن خضيري أحمد: مرجع سابق، ص٩٩.

obeikan.com

إذن فقد أثرت العوامل الاقتصادية بشكل مباشر وقوي على النشاط التجاري البحري، فقد اشتهرت بلاد المغرب الأدنى بالرعي وتربية الحيوانات، وكانت منتجات تلك الإبل والأغنام خاصة الجلود أحد أهم صادرات بلاد المغرب الأدنى، كما كانت تربية النحل الذي يوفر العسل والشمع منتشرة في أماكن مختلفة من البلاد، وكان الشمع والعسل من المواد المهمة في عملية التصدير لبلاد المغرب الأدنى. كما أدى النشاط الزراعي دوراً أساسياً ومهماً في نشاط الحركة التجارية لهذه البلاد، فقد اتخذت المنتجات الزراعية في مقدمة السلع التجارية في عمليتي التصدير والاستيراد، خاصة منتجات زراعية مهمة مثل القمح والزيتون والتمور.

مما سبق أيضاً نلاحظ انتشار العديد من الصناعات في بلاد المغرب الأدنى خلال فترة البحث، فكانت منتجات صناعة المنسوجات أهم أركان السلع التي تصدرها بلاد المغرب الأدنى عن طريق النشاط التجاري البحري، بالإضافة إلى دباغة الجلود، وفي السياق نفسه نجد أن النشاط الصناعي لبلاد المغربين الأدنى والأقصى قد أنعكس بالطبع على النشاط التجاري لاسيما البحري منه لبلاد المغرب عامه والمغرب الأدنى على وجه الخصوص، وإذا انتقلنا للدائرة الأوسع المحيطة بالمغرب الأدنى أي حوض البحر المتوسط، نجد أن النشاط الصناعي فيه قد ساهم في تحريك وتنشيط التجارة البحرية بما فيها التجارة مع المغرب الأدنى؛ من جانب آخر كانت التجارة البرية بمثابة الوريد الذي أمد التجارة البحرية بما تحتاجه من سلع، كما كانت هي الحاضنة الأولى للمعاملات التجارية والتي استُخدمت فيما بعد في التجارة البحرية.

ثالثاً – العوامل السياسية والأمنية:

تأثر النشاط التجاري البحري بأوضاع الكيانات السياسية الداخلية وموقفها من الأنشطة الاقتصادية عامة والنشاط التجاري البحري خاصة، سواء في بلاد المغرب الأدنى نفسه أو في الجوار الجغرافي في المغربين الأوسط والأقصى أو في

obeikan.com

حوض البحر المتوسط. كما كان للعلاقات الدولية تأثير على النشاط التجاري البحري، سواء الصراعات الحربية والقرصنة أو العلاقات الدبلوماسية التي ربطت الدول التي قامت في بلاد المغرب الأدنى بدول حوض البحر المتوسط، بالإضافة للعلاقات التي ربطت تلك الدول بعضها ببعض، وسنعرض لتلك العوامل فيما يلي:

أ – أوضاع الكيانات السياسية وموقفها من النشاط التجاري:

كانت الأوضاع السياسية الداخلية للكيانات السياسية التي قامت في بلاد المغرب الأدنى والمناطق المجاورة لها أثرها على التجارة البحرية، كذلك أثرت مواقف الحكام تجاه التجارة البحرية ومدى اهتمامهم بها على ذلك النشاط التجاري.

١ – في المغرب الأدنى:

أثرت الأحوال السياسية والأمنية الداخلية في بلاد المغرب الأدنى على الأحوال الاقتصادية لاسيما التجارية منها وخاصة التجارة البحرية، ففي خلال فترة البحث توالى على حكم بلاد المغرب الأدنى ثلاث دول رئيسية هي الدولة الزيرية والدولة الموحدية والدولة الحفصية، بالإضافة إلى مجموعة من الدويلات أو الإمارات الصغيرة التي كانت تظهر في المدن الرئيسية أثناء فترات ضعف الدول الرئيسية الثلاث[١].

---

١) جورج مارسيه: مرجع سابق، ص٨٧.

obeikan.com

وفي عهد الدولة الزيرية[١] لاسيما منذ بداية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي كان هناك تأثير للوضع السياسي والأمني في بلاد المغرب الأدنى على النشاط التجاري، فكان هناك وجهان لتلك التأثيرات أحدهما سلبي والآخر ايجابي؛ أما السلبي فقد أثرت الفتن والثورات الداخلية بالسلب على التجارة الخارجية لاسيما البحرية منها، فمن الفتن والثورات الداخلية والتي أدت إلى ضعف التجارة حروب صنهاجة ضد زناتة وحروب الزيريين ضد بني عمومتهم الحماديين، والتي أدت إلى ضعف الاقتصاد بصفة عامة والتجارة بصفة خاصة[٢].

كما كان لاشتداد أزمة قتل الرافضة عام٤٠٧هـ / ١٠١٦م على أيدي العامة من أهل السنة عند وصول المعز بن باديس(٤٠٦ – ٤٥٤ هـ / ١٠١٦ – ١٠٦٢م) إلى

---

١) كان خلفاء الفاطميين ينوون الاحتفاظ بمنطقة "افريقية" تابعة لهم فقاموا بتولية المعز بلكين بن زيري الصنهاجي عليها. ثم انقسمت هذه الأسرة الحاكمة إلى فرعين، فرع بني حماد في الجزائر، وفرع المنصور بن زيري في افريقية، واتجه الفرعان خطوة خطوة إلى الاستقلال، فما جاء عام ٤٣٥هـ /١٠٤٣م حتى اجتاحت "افريقية " ثورة ضد المذهب الشيعي، وفي عام٤٤٣هـ/١٠٥١م أُبطلت الخطبة للفاطميين وأقيمت الخطبة لبني العباس. كما أمر المعز بن باديس بسك عملات جديدة لا تحمل أسماء الفاطميين، ورد الفاطميين على ذلك بإرسال قبائل بني هلال الرعوية، انظر: ابن عذاري: مصدر سابق، جـ١، ص٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٧، ابن الأبار: الحُلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية١٩٨٥م، جـ٢، ص٢١، المقريزي: اتعاظ الحنفا باخبار الائمة الفاطميين الخلفا، جـ٢، ص ٩٩، ٢١٤ – ٢١٧، ١٨٦، كولين ماكيفيدي: مرجع سابق، ص٨٥.

٢) الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٥-١٩٩٧م، جـ٣٠، ص٢٨٩، سعد زغلول عبد الحميد: مرجع سابق، جـ٣، ٤٥٩ – ٤٦٢.

قامت العديد من الحروب والصراعات بين بني زيري في تونس وابناء عمومتهم بني حماد وذلك منذ عام ٤٥٧ هـ، انظر: الذهبي: تاريخ الإسلام، جـ٣٠، ص٢٨٩، سعد زغلول عبد الحميد: مرجع سابق، جـ٣، ٤٥١–٤٥٣.

obeikan.com

الحكم في إفريقية أثرها السلبي على التجارة عامة والبحرية منها بصفة خاصة. حيث أقدم المعز بن باديس على قتل إمام أهل السنة أبي علي الحسن بن خلدون البلوي، في محاولة منه لتهدئة الوضع، وبعد قتله ثارت العامة وقام أهل المنصورية من رجال وعبيد فنهبوا جميع ما في الأسواق والحوانيت وأحرقوا الأسواق الكبيره ونهبت أموال التجار بعد أن كانوا آمنين علي أموالهم وحوانيتهم[١].

أما عن التأثير السلبي لغزوة بني هلال[٢] على أوضاع التجارة البحرية أشارت بعض الفتاوى إلى ما أسفرت عنه غزوة بني هلال من عواقب وخيمة على اقتصاد البلاد، تتمثل بالخصوص في تقلبات الأسعار والابتزاز وأعمال النهب[٣]. ومن آثار الغزوة الهلالية السلبية أنها خربت الموانئ وأهلكت الزروع وهذا ما أدى إلى توقف التجارة بسبب انقطاع الطرق وفقدان الأمن، ومن ثم راح التجار يبحثون عن مناطق آمنة يمارسون فيها نشاطهم التجاري، وسافرت عائلات بأكملها من بلاد

١) ابن عذاري: البيان المغرب، جا، ص٢٧٣-٢٧٧، الدباغ: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق محمد ماضور، مكتبة الخانجي، القاهرة١٣٨٨هـ، ج٣، ص١٥٠، ١٥٣، ١٥٥، سامية مصطفي مسعد: مرجع سابق، ص٧٥، ٧٦، عبد الهادي التازي: مرجع سابق، ج٥، ص١٧٨، ١٨٥، ١٨٦.

٢) كان نتيجة للضعف الذي أصاب بني زيري اثر الهجرة الهلالية، أن قامت عدة إمارات صغيرة أو دويلات في أهم المدن حكمت بعضها اسر عربية، وحكمت البعض الأخر اسرٌ من البربر: مثل بني خراسان بتونس وابن الرند بقفصة وابن الورد العرب ببنزرت وابن جامع بقابس، بالاضافة لعدد كبير آخر من الرؤساء الذين أنشئوا إمارات عابرة في باجة مثلاً وطبرية وغيرها من المدن الداخلية، ولم يحتفظ بنو زيري إلا بشريط ساحلي ضيق، يمتد من سوسة إلى صفاقس، أما أبناء عمومتهم من بني حماد، فقد نقلوا عاصمتهم من القلعة إلى مدينة بجاية، انظر:عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٢١١، ابن غلبون الطرابلسي: مصدر سابق، ص٣،٤، سعد زغلول عبد الحميد: مرجع سابق، ج٣، ص٤٤١، ٤٤٤-٤٤٦.

٣) المقريزي: اتعاظ الحنفا باخبار الائمة الفاطميين الخلفا، ج٢، ص٢١٨، الهادي روجي إدريس: مرجع سابق، ج٢، ص٢٧١، ٢٧٢، جورج مارسيه: مرجع سابق، ص٢٤٣.

obeikan.com

المغرب إلى مصر وإلى جنوب إيطاليا وبلاد الشام، يؤكد ذلك ما ورد في وثائق الجنيزة عن عائلات مغربية في مصر مثل: الليبيدي والطرابلسي وغيرها[١].

كما عرقلت غزوة بني هلال نشاط القوافل لاسيما القادمة بالذهب من بلاد السودان، مدة من الزمن على الأقل مما أدى إلى نقص الذهب في المهدية، وصعوبة تلافي النزيف المتولد عن ضرورة استيراد القمح الصقلي، فقد تفاقمت الفوضى حتى جعلت إفريقية مضطرة إلى شراء الحبوب من صقلية[٢].

أما التأثير الايجابي للأوضاع السياسية على التجارة البحرية، فقد كان لضعف النشاط الزراعي ونزوح الناس إلى المدن الساحلية المحصنة والعجز عن تأمين الطرق البرية، نتيجة كثرة الحروب وغزوة بني هلال دفع بنو زيري نحو السواحل، حيث اعتمدوا على التجارة الخارجية كمصدر أساسي للدخل، وحاولوا تأمين الطرق البحرية في سواحل دولتهم واحتكار النقل البحري. كما كان للزيريين عناية

(١

Letter from Joseph Lebdi to Hasan b. Bundar Fustat, ١٠٩٨(Bodl. MS. Heb. d. ٦٦ (Cat. ٢٨٧٨), fols. ٦٦, ٦٧), Published by Mordechai Akiva Friedman,S.D.Goitein : India Traders of the Middle Ages (Documents from the cairo Geniza) , the Ben – Zvi Institute Jerusalem , Brill , Leiden , Boston ٢٠٠٨, pp١٩٨-٢٠٢. Goitein. S.D : From the Mediterranean to India : Documents on the Trade , p١٩١

الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، جـ٣٠، ص١٦، جورج مارسيه: مرجع سابق، ص٢٤٤، الحسن السائح: الحضارة الإسلامية في المغرب، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الثانية١٩٨٦م، ص٢٠٠.

٢) الذهبي: تاريخ الإسلام، جـ٣٠، ص١٦، الهادي روجي إدريس: مرجع سابق، جـ٢، ص٢٧١، ٢٧٢، ٢٩١ – ٢٩٣.

obeikan.com

خاصة بفئة التجار وكانوا لا يبالغون في معاقبة المخطئ منهم، حتى ولو كان الخطأ في حق حكام بني زيري أنفسهم[١].

لذلك نجد وبرغم كل تلك القلاقل السابقة الذكر أن الدولة الزيرية خاصة في عهد المعز بن باديس شهدت ازدهاراً اقتصادياً، فبعد أربعة قرون ذكر ابن خلدون هذا الرأي عن إفريقية المعز وقال"وكان أضخم ملك عرف للبربر بإفريقية وأترفه وأبذخه"[٢]. وقد أكدت لدينا آثار فنية ترجع إلي هذا العصر الانطباع بأننا أمام امتداد أو عودة أو قمة الحضارة التي ظهرت في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي مع الأغالبة[٣].

وأما ايجابيات هجرة الهلاليين على التجارة البحرية فتتمثل في عدة نواحي أهمها، إن منهم من أسهم في إعادة النشاط الاقتصادي لبعض مدن إفريقية، مثل مدينة قابس التي شهدت في عهد أمرائها من بني جامع الهلالية نشاطاً اقتصادياً ملحوظاً[٤].

---

١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، تحقيق محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى١٩٨٧م، جـ٩، ص١١٩، ١٢٠، ابن غلبون الطرابلسي: مصدر سابق، ص٣٨، الهادي روجي إدريس: مرجع سابق، جـ١، ص١٥٩– ١٦١، عز الدين عمر موسي: النشاط الاقتصادي، ص٢٦٣– ٢٦٥، أمين توفيق الطيبي: مرجع سابق، ص٢٣٧.

٢) العبر: جـ٦، ص٢١٠، جورج مارسيه: مرجع سابق، ص٢٠٤.

٣) جورج مارسيه: المرجع السابق، ص٢٠٤.

٤) التيجاني: مصدر سابق، ص٩٨، ممدوح حسين علي حسين: مرجع سابق، ص١٢٥ ، ١٢٦، إلهام حسين دحروج: مدينة قابس منذ الغزوة الهلالية حتى قيام الدولة الحفصية٤٤٢ – ٦٦٥ هـ / ١٠٥١ –١٢٤٧م) ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب، جامعة القاهرة، القاهرة ٢٠٠٠م، ص٦٠ – ٦٢.

أما عن تأثير الوضع السياسي والأمني للمغرب الأدنى تحت حكم الموحدين[١]، فقد كان له وجهان أيضاً أحدهما سلبي والأخر إيجابي، أما الوجه السلبي للوضع السياسي والأمني تحت حكم الموحدين، فقد حدث استنزاف طاقة الدولة ومواردها نتيجة الفتن والحروب الداخلية لاسيما مع بني غانية والقبائل العربية ببلاد المغرب الأدنى والأوسط[٢]. كما عانت البلاد فترات من الغلاء

١) في حالة الفوضى التي حدثت في أواخر العصر الزيري حصلت الغزوة الموحدية في إفريقية، وقد قام بهذه الغزوة الخليفة عبد المؤمن بن علي بنفسه ، حيث تمّت الحملة الأولي في عام٥٤٧هـ /١١٥٢م وأفضت إلي إلحاق دولة بني حماد بالدولة الموحدية، وحصلت الثانية في عام ٥- ٥٥٤هـ /٦٠ – ١١٥٩م وآلت إلي امتداد الهيمنة الموحدية على كامل بلاد المغرب عامة والمغرب الأدنى خاصة. وبعد فترة ظهر عنصر أجنبي منافس للموحدين في المنطقة وهو بنو غانية مدعمين بعناصر بربرية وعربية، هذه المرحلة تمتد إلى عهد حملة المنصور الموحدي إلى افريقية عام ٥٨٣هـ /١١٨٧م ، مما فرض تحرك الخليفة الناصر إلى افريقية لإبعاد بني غانية عنها، انظر: مجهول: الحلل الموشية في الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى١٩٧٩م، ص١٤٨، ١٥٣، ١٥٤، الزركشي: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، الطبعة الثانية١٩٦٦م، ص١١، ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة تحقيق محمد شريفة، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، المغرب١٩٨٤م، جـ٨، ص٦٢، محمد العروسي المطوي: السلطنة الحفصية [تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي]، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٦م، ص٦٧، إمبروسيو هويثي ميراندا: التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية، ترجمة عبد الواحد اكمير، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء٢٠٠٤م، ص٣٩٩، عزيز احمد: تاريخ صقلية الإسلامية، ترجمة أمين توفيق الطيبي، الدار العربية للكتاب ، ليبيا– تونس١٩٨٠م، ص٦٩، ٧٠.

٢) عبد الواحد المراكشي: وثائق المرابطين والموحدين، ص٢٢٧، ابن الشماع: الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق الطاهر بن محمد المعموري، الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس ١٩٨٤م، ص٣٧، ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص١٨١، ابن خلدون: العبر، جـ٦، ص٣٣٣، روجي لي تورنو: حركة الموحدين في المغرب في القرنين الثاني

والقحط ارتبط بتدهور أحوال الأمن، خاصة في الفترة الأخيرة من عصر الموحدين التي حفلت بالاضطرابات والانقسامات والحروب الداخلية بين أمراء الموحدين بسبب التنافس والصراع حول العرش، لاسيما عصر الخليفة إدريس (٦٢٦ هـ - ٦٣٠هـ /١٢٢٩-١٢٣٣م) وعبد الواحد الرشيد(٦٣٠-٦٤٠هـ/ ١٢٣٣-١٢٤٢م)[١].

أما الوجه الإيجابي فإن الحقائق تثبت أن قوة وثروة دولة الموحدين واتساع ملكها كان نتيجته وقوع المغرب الأدنى وباقي بلاد المغرب والأندلس لسلطة واحدة، مما أثر في ازدهار التجارة بين تلك المناطق ومع البلدان المسيحية أيضاً[٢].

عشر والثالث عشر، ترجمة أمين الطيبي، الدار العربية للكتاب، تونس١٩٨٢م، ص٩٣، إبراهيم القادري: مرجع سابق، ص٧٨، عز الدين عمر موسي: الموحدون في الغرب الإسلامي، ص٥٠، ٥١، عبد الهادي التازي: مرجع سابق، جـ٦، ص٨٣، ١٥١.

١) ابن عذارى: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٢٠٦، ٢٠٧، مجهول: مفاخر البربر، تحقيق عبد القادر بوباية، دار أبى رقراق، الرباط، الطبعة الأولى٢٠٠٥م، ص٣٨٤،٣٨٣، حسين سيد عبد الله مراد: فلاحو فاس في عصر الموحدين [٥٤٠-٦٤٦هـ / ١١٤٦- ١٢٤٦م]، مجلة وقائع تاريخية، جامعة القاهرة، كلية الآداب، مركز البحوث والدراسات التاريخية، عدد يوليو٢٠٠٥م، ص٧٨، ٧٩، كمال السيد أبو مصطفي: دراسات في تاريخ وحضارة المغرب والأندلس، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية١٩٩٧م، ص٧، عز الدين عمر موسي: الموحدون في الغرب الإسلامي، ص٥٥، ٥٦، دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى١٩٨٣م، ص٧٨،٧٧.

٢) عبد الواحد المراكشي: وثائق المرابطين والموحدين، ص ١٢٥، روجي لي تورنو: مرجع سابق، ص٩٣، إتوري روسي: مرجع سابق، ص١٠٥، أوليفيا ريمي كونستبل: مرجع سابق، ص٧٤، يحياوي العمري بن قربة: الدراهم المغربية الأندلسية المربعة من خلال مجموعة المتحف الجهوى بمليانة، (رسالة ماجستير غير منشورة)، قسم الآثار، كلية العلوم الإسلامية والاجتماعية، جامعة الجزائر، الجزائر، السنة الجامعية ٢٠٠٣ – ٢٠٠٤م، ص٧٩ ، عبد العزيز بنعبد الله: معطيات الحضارة المغربية، دار نشر المعرفة، الرباط، الطبعة الثالثة٢٠٠٠م،

obeikan.com

خاصة وأن هذه المساحة الشاسعة للدولة الموحدية قد شجع التجار الذين كانوا يخضعون في هذه المناطق لحكومة واحدة على التنقل بحرية تامة، مما ساعد علي تنشيط حركة التجار من بيع وشراء وتبادل منتجات(١).

كما ألغى الخلفاء الموحدون الضرائب غير الشرعية، فعندما تولى عبد المؤمن بن علي الخلافة ألغى المغارم والقبالات والمكوس التي فرضها المرابطون في أواخر عصرهم(٢). كما أرسى سياسة مراقبة الأعمال التجارية والمالية ومكافحة الفساد، خاصة فيما يتعلق بفرض الضرائب غير الشرعية مثل المغارم والمكوس والقبالات ومتابعة الأعمال في المراسي، بالإضافة إلى التدقيق في مصادر أموال ووثائق التجار القادمين للتجارة داخل موانئ الدولة الموحدية(٣)، وهو ما سار عليه خلفاؤه من الموحدين(٤)، كما أن بعضهم كان ينتهز فرصة تولية الحكم ويقوم بحركة تنشيط للتجارة وذلك عن طريق إسقاط الضرائب السابقة وتوزيع الأموال ومراقبة

ص٥٦، ٥٧، محمد مزين واخرون: الجبل في تاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدى محمد بن عبد الله، فاس١٩٩٤م، ص٤٤، حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٩٨م، ص١٣٧، ١٣٨،

Budgett Meakins : The Moorish Empire , London , ١٨٩٩ , P ٧٨ .

١) أحمد إسماعيل الجمال: مرجع سابق، ص١٢٩، ١٣٠، عبد العزيز بنعبد الله: مرجع سابق، ص٥٦، ٥٧، محمد مزين وآخرون: مرجع سابق، ص٤٤.

٢) أحمد إسماعيل الجمال: المرجع السابق، ص١٢٩، ١٣٠.

٣) ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٣٧، ٣٨، ٨١، ٨٢، حسن علي حسن: مرجع سابق، ص١٩١، امبروسيو هويثي ميراندا: مرجع سابق، ص١٢٨.

٤) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٤٢، ص٢١٩، عز الدين احمد موسي: النشاط الاقتصادي، ص١٧٧، الحسن السائح: الحضارة الإسلامية في المغرب، الدار البيضاء، الطبعة الثانية١٩٨٦م،ص٢٤٧، جمال أحمد طه: مرجع سابق، ص١٠٦.

obeikan.com

العملة[١]. مثال ذلك ما فعله الخليفة يوسف بن عبد المؤمن في عام ٥٦٣هـ /١١٦٣م، حيث ذكر ابن صاحب الصلاة عنه أنه "أمنهم من المخاوف فيما تقيد عليهم في الدواوين فزاد الانبساط، والنشاط عند الناس بفضله وصفحه وعدله، وزادت المخازن إثر ذلك وفوراً، ونمت الأرزاق، وعمرت الأسواق بالبيع والتجارة الرابحة "[٢]. وهو ما دفع ابن جبير لكي يشيد بدورهم في هذا المجال: "كما أنه لا عدل ولا حق ولا دين على وجهه إلا عند الموحدين "[٣].

وخلال العصر الموحدي أكتمل تمدن مدن بلاد المغرب كلها من تونس إلى طنجة[٤] ورباط الفتح ومراكش وسبتة[٥] وقسنطينة[٦] وتلمسان وقامت في الموانئ دور الصناعة وأرصفة السفن[٧]. كما عمل الموحدون على إنشاء العديد من فنادق التجار لما لهذه المنشأة من دور اقتصادي كبير، فعلى سبيل المثال بعد سنوات قليلة من استيلاء عبد المؤمن بن عليّ على المهدية سمحت السلطات المغربية بإنشاء فندق

١) ابن جبير: مصدر سابق، ص٥٦، احمد عزاوي: رسائل موحدية (مجموعة جديدة)، جـ٢، ص٢٤١، حسين سيد عبد الله مراد: فلاحو فاس ، ص٦٧.

٢) المن بالإمامة: ص ٢٦٦، أحمد إسماعيل الجمال: مرجع سابق، ص١٢٩، ١٣٠.

٣) رحلة ابن جبير: ص٥٥، ٥٦.

٤) ومدينة طنجة: مدينة قديمة بالمغرب تقع على شاطئ بحر الزقاق، بينها وبين مدينة القيروان نحو ألف ميل، كما أن بين مدينة طنجة وسبته ثلاثون ميلاً في البر، انظر: الحميري: مصدر سابق، ص٣٩٥، ٣٩٦.

٥) سبتة: مدينة بالمغرب الأقصى، على ساحل البحر المتوسط، وليس لها إلى البر غير طريق واحد من ناحية الغرب ، وكان لها ماء مجلوب من نهر على بعد ثلاثة أميال منها، الحميري: مصدر سابق، ص٣٠٣.

٦) قسنطينة: من أهم مدن المغرب، بين تيجس وميلة، وهي مدينة قديمة كبيرة، اشتهرت بكثرة انتاجها الزراعي وتعدد أسواقها، أنظر: الحميري: مصدر سابق، ص٤٨٠.

٧) ابن صاحب الصلاة: مصدر سابق، ص٢٦٦، عبد الواحد المراكشي: وثائق المرابطين والموحدين، ص٢٢٩، حسن علي حسن: مرجع سابق ، ص٢٦٦، ٢٦٧ .

obeikan.com

الفرنج في المهدية وآخر في تونس[١]. كما عمل الموحدون على إصلاح أسواق بعض مدن المغرب الأدنى، فعبد المؤمن بن علي أثناء حصاره للمهدية قد علم بأن النصارى قد أخلوا مدينة زويلة، فأمر عبد المؤمن بإدخال أسواق المحلة إليها وأن يدخل من أهل المحلة من يعمرها[٢].

كما شجع الموحدون في بلاد المغرب عامةً والأدنى خاصة التجار على المجيء إلى البلاد[٣]. سواء تجار النصارى من خلال معاهدات دبلوماسية مع المدن الايطالية[٤]، أو التجار المغاربة حيث كانت الدولة تقوم بإقراض طلبة الحضر أموالاً يتاجرون بها ثم يردون السلف[٥].

كما إن تفوق الموحدين على أعدائهم في الخارج والثائرين في الداخل مكنهم من فرض الأمن والاستقرار في ربوع دولتهم، وقد تبين لخلفائهم الارتباط بين حالة

---

١) عبد الواحد المراكشي: وثائق المرابطين والموحدين، ص٢٣٠، عز الدين احمد موسي: النشاط الاقتصادي، ص٢٧٢، شرقي نوارة: الحياة الاجتماعية في الغرب الإسلامي في عهد الموحدين (٥٢٤ هـ / ١١٢٦ م – ٦٦٧ هـ /١٢٦٨ م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، الجزائر ٢٠٠٨م، ص٧٩.

٢) الزركشي: مصدر سابق، ص١١.

٣) ابن جبير: مصدر سابق، ص٥٦، احمد عزاوي: رسائل موحدية (مجموعة جديدة)، جـ٢، ص٢٤١، حسين سيد عبد الله مراد: مرجع سابق، ص٦٧.

٤) أوليفيا ريمي كونستبل: مرجع سابق، ص١٢٠، بشير رمضان التلبيسي: تاريخ ليبيا عقب الفتح العربي الإسلامي حتى نهاية القرن الخامس عشر، ضمن (معالم الحضارة الاسلامية فى ليبيا، دار الكتب الوطنية)، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية، القاهرة، الطبعة الاولى ٢٠٠٨ م، ص٨٣.

٥) ابن عذارى: مصدر السابق، قسم الموحدين، ص٨١، عز الدين عمر موسي: النشاط الاقتصادي، ص٢٧١، ٢٧٢،

Abdellatif Sabbane : Le Gouvernement et L'Administration - de La Dynastie ALmohade , (xiie-xiiie siècle's), de Ddoctorat (N.R) , Universite Paris I, Pantheon Sorbonne, U. F. R D'Histoire, Année : ١٩٩٨-١٩٩٩, p. ٣١٢.

obeikan.com

الأمن والوضع الاقتصادي، فشدد عبد المؤمن في أمر قطاع الطرق، ويروى ابن شداد فيما نقله عنه النويري أن عبد المؤمن قتل حفاظ محلة قرب بجاية سرقت فيها أمتعة أحد تجار المهدية، وتابع الخليفة يوسف والخليفة المنصور هذه السياسة، ويذكر أكثر من مؤلف عن أيام الخليفة يوسف الموحدي وابنه يعقوب المنصور مقولة " يسير الراكب حيث شاء من بلاد العدوه في طرقها من جبلها وسهلها أمناً في نفسه وماله لا يخاف إلا الله أو الذئب"(١)؛ ونتيجة للأمن والاستقرار اتسعت الزراعة ونهضت الصناعة، مما أدي إلى رواج وازدهار التجارة بشقيها الداخلي والخارجي(٢).

١) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٢١٢، ابن عذاري: البيان المغرب، ص٦٧، ٢٥٧، ابن أبي زرع: مصدر سابق، ص٢١٧، عز الدين موسي: الموحدون في الغرب الإسلامي، ص٥١ – ٥٣، دراسات في تاريخ المغرب الاسلامي، ص٧٦، ٧٧، عبد الهادي التازي: مرجع سابق، جـ٦، ص١٠.

٢) عبد الواحد المراكشي: وثائق، ص١٢٢، المعجب، ص٢١٥، ٢٥٩، ٢٦٢، ٢٦٣، السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء١٩٥٤م، ص١٧٧،عز الدين موسي: الموحدون في الغرب الإسلامي، ص٥١ – ٥٣، حسن علي حسن: مرجع سابق،ص١٨٢، ١٨٣.

obeikan.com

أما عن تأثير الأوضاع السياسية والأمنية لحكم الحفصيين للمغرب الأدنى[١] على التجارة البحرية في المغرب الأدنى حتى نهاية فترة البحث، فيظهر بطريقة أو بأخرى من خلال نشاط الحفصيين على الصعيد الاقتصادي أو الأمني، فمنذ أن تولى عبد الواحد بن أبي حفص لمقاليد الحكم عام٦٠٣ هـ /١٢٠٧م في إفريقية، بدأت ترتسم في الأفق بوادر استقلال هذه الولاية عن الدولة الموحدية، وربما كان من الحكمة التي كان يتصف بها هذا الوالي هو إبقاء دار السك تنتج عملات موحدية، وذلك تلبية لمتطلبات تلك المرحلة، ومنها تسهيل العملية التجارية والمحافظة على الاستقرار المالي، حتى تتمكن الدولة من صرف رواتب الجنود والموظفين والعمال، وهذا ما نستشفه في مدى صلابة تلك المؤسسات الاقتصادية ومقاومتها برغم الحروب والفتن التي مرت بها تلك الولاية. ومع وصول عبد الواحد بن أبي حفص إلى الحكم عام ٦٠٣هـ/١٢٠٧م، بدأ في ترتيب شؤون إفريقية، تمهيداً لانفصالها

١) كانت الأحداث الأخيرة في عهد الناصر الموحدي لاسيما ظهور بني غانية في المنطقة، هي التي مهدت لقدوم الحفصيين لحكم هذه البلاد. ففي عام ٦٠٢ هـ /١٢٠٥م ولي الحفصيون عمالة أفريقية، وقد ظل عبد الواحد الحفصي خاضعاً لسلطة الخليفة الموحدي ، ومع قدوم عام ٦٢٧ هـ / ١٢٢٩ م كان استيلاء الأمير أبي زكرياء الحفصي علي بلاد افريقية فمنذ هذا التاريخ أصبح أبو زكريا أميراً وبايعه أشياخ الموحدين الكبراء، وقد اتخذ بنو حفص تونس مركزاً لسلطانهم، انظر: ابن القطان المراكشي: مصدر سابق، ص٣٢، ابن قنفذ القسنطيني: مصدر سابق، ص١٣١، ١٣٢، الأبي: إكمال إكمال المعلم، المكتبة الخديوية، القاهرة١٣٢٨هـ، جـ٥، ٢٦٤، ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجى، القاهرة، الطبعة الثانية١٩٧٥-١٩٧٧م، جـ١، ٣١٠، ٣١١، ابن ابي زرع: مصدر سابق، ص٢٣٣، ٢٧١، القرماني: أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، تحقيق أحمد حطيط، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى١٩٩٢م، جـ٢، ص٤١١-٤١٣، علي محمد الصلابي: إعلام أهل العلم والدين بأحوال دولة الموحدين، مكتبة الإيمان، المنصورة، الطبعة الأولى٢٠٠٤م، ص٣٤٥.

واستقلالها عن الخلافة الموحدية. والراجح أنه برغم الأزمات التي تعرضت إليها المدينة، فقد حافظت علي هيكلها ومؤسساتها الاقتصادية[١].

٢ – في المغربين الأوسط والأقصى:

تُعد التجارة أبرز الأنشطة الاقتصادية في الدولة الحمادية(٣٩٧-٥٤٧هـ/١٠٠٧-١١٥٢م)[٢] على الإطلاق، ولقد ساعدت الظروف السياسية والجغرافية والاقتصادية على ازدهار التجارة في هذه الدولة؛ فنتيجة لسياساتهم في المسالمة سواء مع المسلمين والنصارى بالإضافة إلى الموقع الذي يتمتعون به والساحل الممتد علي البحر المتوسط، ويضمه من المرافئ والأسواق والاتصالات التجارية التي نشطوا فيها. كل هذه العوامل مكنت هذه الدولة من مزاولة تجارة ناجحة، سواء في داخل المغرب أو خارجه، كما منح الأمن الذي توفر للمجتمع الحمادي فرصة لازدهار الزراعة وبعض ألوان الصناعة[٣].

كما حظيت التجارة بنصيب وافر من اهتمام المرابطين، فلقد كان لامتداد رقعة الدولة في المغرب الأقصى والأندلس عظيم الأثر في ازدهار النشاط التجاري، وأدى بالتالي إلى فتح منافذ متعددة لتسويق المنتجات الزراعية والصناعية، فنشطت حركة الصادر والوارد، ونمت التجارة الداخلية والخارجية. ولا شك أن عامل الاستقرار السياسي في دولة المرابطين وعلى الأخص في عصر يوسف بن تاشفين والنصف

---

١) يحياوي العمري بن قربة: مرجع سابق، ص٩٨.

٢) تعتبر الدولة الحمادية شعبة من دولة آل زيري، وكانت عاصمتهم في بداية الأمر القلعة، وتم بناؤها وتمصرها على رأس المائة الرابعة، ثم انتقلوا إلى مدينة بجاية، انظر: ابن خلدون: العبر، جـ٦، ص٢٢٧.

٣) البكري: مصدر سابق، ص٤٩، ابن خلدون: العبر، جـ٦، ص٢٢٧، ٢٣٢، الحميري: مصدر سابق، ص٨١، ٨٢، عبد الحليم عويس: دولة بني حماد، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الثانية١٩٩١م، ص٢٢٦، ٢٢٧.

الأول من عصر علي بن يوسف، كان من أهم العوامل في تأمين طرق التجارة الداخلية بين حواضر الدولة سواء في المغرب أو في الأندلس، كما أن نمو البحرية المرابطية في عصر علي بن يوسف واحتلالها مركزاً ممتازاً في حوض البحر المتوسط، كان له أثره الكبير في ازدهار التجارة الخارجية المرابطية، وتأمين طرق التجارة البحرية من الأخطار التي كانت تتعرض لها ولاسيما خطر القراصنة[١].

٣ – في حوض البحر الأبيض المتوسط:

تحّكم في البحر المتوسط في تلك الفترة مجموعتان رئيسيتان من القوي، المجموعة الأولي هي القوي النصرانية والمتمثلة في دول أوربا، والمجموعة الثانية هي القوي الإسلامية والمتمثلة في الدول الإسلامية التي قامت في بلاد الشام وشمال افريقيا[٢].

كانت أهم قوى المجموعة النصرانية التي أثرت بشكل كبير في التجارة البحرية لبلاد المغرب الأدنى صقلية والمدن الايطالية، أما عن صقلية[٣] فقد عاشت فترة من

---

١) ابن خلدون: العبر، جـ٦، ص٢٤٢ – ٢٥٢، الحميري: مصدر سابق، ص ٤٦، حمدي عبد المنعم محمد حسين: التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عصر المرابطين، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية١٩٩٧م، ص٣٤٩.

٢) عزيز سوريال عطية: العلاقات بين الشرق والغرب، ترجمة فيليب صابر سيف، دار الثقافة، القاهرة، طبعة أولى١٩٧٢م، ص١٥٠.

٣) حكم صقلية في تلك الفترة الكلبيين ومن بعدهم النورمان، وقد عرفت صقلية تحت حكم الكلبيين (٣٣٧ – ٤٤٠ هـ / ٩٤٨ – ١٠٤٨م) ازدهاراً كبيراً، وبدأ هذا الازدهار في التلاشي تدريجياً، وأدى ذلك إلى نشوب حروب داخلية طويلة تدخل فيها البيزنطيون من جهة والزيريون من جهة أخري فانقرضت دولة الكلبيين، وبانقراضها حاول ابن الثملة أن يصبح أميراً علي الجزيرة ودعي النورمان إلى فتحها. أما النورمان فقد جاءوا من شبه جزيرة إسكندناوه ثم زحف قسم منهم إلى جنوب أوربا في القرن الحادي عشر الميلادي، واستقروا بصقلية وجنوب ايطاليا وكونوا مملكة عرفت باسم (مملكة الصقليتين)،انظر:

الاضطرابات والصراعات انتهت بسيطرة النورمانديين عليها، ويرجع الفضل في ذلك إلى قائدين من النورمانديين في هذه الفترة وهما روبرت جويسكارد (٤٠٥–٤٧٧ هـ /١٠١٥–١٠٨٥م) حاكم منطقة (أبوليا في جنوب شرق ايطاليا)، وأخوه روجر الأول (٤٢١–٤٩٤هـ /١٠٣١–١١٠١م). في تلك الفترة استمرت صقلية طريقاً للتجارة الإسلامية والمسيحية، كما أثرت الجهود الكبيرة للنورمانديين في الحروب الصليبية بالشام على مجرى التجارة في العصور الوسطى، فقد أدى نجاح روجر الاستعماري إلى اتساع التجارة الصقلية إلى الجزء الجنوبي والشرقي من البحر المتوسط، خاصة بعد سيطرته على بعض مدن بلاد المغرب الأدنى واستغلال اقتصادها، حيث عهد بإدارة هذه الأملاك الأفريقية إلي جورج الأنطاكي الذي عين نائباً له وأطلق عليه العرب لقب الوزير[١].

أما القوة النصرانية الثانية التي أثرت في التجارة البحرية للمغرب الأدنى فكانت المدن الايطالية[٢]. حيث أصبح للبحارة الإيطاليون دوراً كبيراً في تجارة

أرشيبالد.ر.لويس: مرجع سابق، ص٣٧٣– ٣٧٥، محمد العروسي المطوي: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٢م، ص٢٢٣، عبد المالك بكاي: مرجع سابق، ص٨٢.

١) أرشيبالد. ر. لويس: مرجع سابق، ص٣٧٣ –٣٨٠، زاهر رياض: شمال أفريقيا في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة١٩٨١م، ص١٤٣، ١٤٤.

٢) في خلال القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي تطورت بعض المدن الساحلية الإيطالية وتحولت إلي جمهوريات تجارية مستقلة، وقد حصلت هذه المدن علي استقلالها في إطار التطور الاجتماعي والسياسي العام لأوروبا خلال ذلك القرن. فقد قامت الدول ألكبري في اسبانيا وانجلترا وفرنسا وألمانيا، وساد النظام ايطاليا في ظل أباطرة الأوتونيين، وهما أباطرة الدولة الرومانية المقدسة الألمانية، ودار في ايطاليا الصراع الطويل على السيادة بين الأباطرة والبابوات. فقد كان الصراع بين البابا والإمبراطور من أكبر عوامل تقدم المدن التجارية الساحلية، انظر: حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، الطبعة الأولى١٩٨٧م، ص٢٩٧، ٢٩٨.

obeikan.com

البحر المتوسط، ويرجع هذا التقدم الذي طرأ على المجال الملاحي عندهم في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، يرجع إلى ظهور تغييرات جذرية في مجتمعات أوربا الغربية في نفس الوقت الذي طرأ انحلال خطير على المسلمين شرقا وغربا خاصة بعدما تقاعس حكام المسلمين عن الجهاد بالأندلس تاركين المجال لمرتزقة مسيحيين مغامرين، حيث نتج عن ذلك حدوث انتصارات لأساطيل غرب أوربا الإيطالية على قوتي المسلمين والبيزنطيين البحريتين، وأصبح الأوربيون عام٤٩٤هـ/١١٠٠م يسيطرون على كورسيكا وسردينية وصقلية وجنوب إيطاليا والأقاليم الساحلية في فلسطين وسورية، بالإضافة إلى سيطرتهم على طرق التجارة البحرية بين الشرق والغرب[١]. وهذا بالطبع اثر على النشاط التجاري البحري للمسلمين خاصة المغاربة منهم.

أما مجموعة القوى الثانية التي أثرت في التجارة البحرية عامه وتجارة المغرب الأدنى خاصة هي مجموعة القوى الإسلامية، لاسيما مصر والتي ارتفع مستوى نشاطها الاقتصادي تحت حكم الدولة الفاطمية(٣٥٨-٥٦٧هـ/٩٦٩-١١٧١م)، فقد أورد المؤرخون أن الفاطميين جاءوا إلى مصر ومعهم كميات هائلة من ذهب بلاد المغرب وغرب أفريقية، وأنهم استغلوا هذه الثروة الطائلة التي جلبوها معهم في تنشيط اقتصاد مصر فاشتركوا برؤوس أموالهم في تجارة الشرق العالمية وشجعوا التجارة الداخلية وعملوا على رواجها، فضلاً عن اهتمامهم بالصناعة والزراعة والعمل على النهوض بهما[٢]. وقد عمل الفاطميون على استتباب الأمن،

---

١)عبد العزيز بنعبد الله: الأساطيل العربية الإسلامية في البحر المتوسط المعروف بالبحر الشامي والعربي، مجلة التاريخ العربي، جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط، العدد ٣ صيف١٩٩٧م ، ص١٣، ١٤.

٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا، جا، ص١٠٠، أرشيبالد. ر. لويس: مرجع سابق، ص٣٢٥، عطية القوصي: تاريخ مصر الإسلامية من الفتح العربي حتى الفتح العثماني (٢٠ – ٩٢٢هـ /٦٤١ – ١٥٧١م)، دار الثقافة العربية، القاهرة، د. ت، ص١٨.

الأمر الذي لفت انتباه الرحالة ناصر خسرو، فسجل انطباعه على هذا الأمان بقوله "بلغ أمن المصريين واطمئنانهم إلى حد أن التجار والصيارفة لا يقفلون أبواب دكاكينهم، بل يسدلون عليها الستائر ولم يكن أحد يجرؤ على مد يده إلى شيء منها "(١).

وقد استفاد الفاطميون من ولاء بلاد الحجاز واليمن السياسي لهم وذلك بتأمين المصالح التجارية لهم في البحر الأحمر وتدعيم علاقاتهم التجارية مع الحجاز واليمن. وأدت سياسة التسامح الديني التي انتهجها الفاطميون إزاء التجار اليهود والأوربيين إلى تسابق هؤلاء إلى أسواق مصر، وحصلوا منهم علي تسهيلات تجارية في داخل البلاد، سهلت التعامل مع التجار المسلمين، حيث نظمت معاهدات تلك الفترة طريقة التعامل بين الأجانب والمسلمين، وقد سمحت الدولة الفاطمية لهؤلاء التجار بإقامة الفنادق التي كانوا يحلون بها عند وصولهم إلى البلاد(٢).

---

١) سفرنامة: ترجمة يحيى الخشاب، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة١٩٩٣م، ص٦٢، محمد عبد الغني الاشقر: تجار التوابل في مصر في العصر المملوكي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٩م، ص٥٠.

(٢

A Letter from a Merchant in Egypt to the Maghreb on Lebdi's Arrival in Aydhab, Egypt, probably ١١٠١, ENA ٢٧٣٠, f. ٧, Published by Mordechai Akiva Friedman,S.D.Goitein : India Traders of the Middle Ages (Documents from the cairo Geniza) , the Ben – Zvi Institute Jerusalem , Brill , Leiden , Boston ٢٠٠٨, pp٢٣٨-٢٣٩,

المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بـ الخطط المقريزية، تحقيق محمد زينهم– مديحة الشرقاوي مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الأولى١٩٩٨م ، جـ٢، ص٩٣، ٣٨٤، ٥٧٢، مارك كوهن: المجتمع اليهودي في مصر الإسلامية في العصور الوسطى، جامعة تل أبيب، تل أبيب، الطبعة الأولى١٩٨٧م، ص١، محمد جمال الدين سرور: تاريخ الدولة الفاطمية، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٩٥م، ص١٤١، محمد عبد الغني الأشقر: مرجع سابق، ص٤٨.

obeikan.com

وفي عصر الدولة الأيوبية (٥٦٧-٦٤٨هـ/١١٧١-١٢٥٠م) عمل حكام الأيوبيون على راحة التجار الدوليون في داخل البلاد؛ فأقاموا لهم الفنادق[١] الخاصة بهم التي كانوا يمارسون فيها مختلف أنشطتهم. ففي عام٥٧٩هـ/١١٨٣م؛ أمر صلاح الدين ببناء فندق لهم بالفسطاط على شاطئ النيل، كانت تتم فيه صفقات بيع التوابل وسلع الشرق لتجار أوروبا[٢].

أما في العصر المملوكي الأول(٦٤٨ – ٧٩٢ هـ/ ١٢٥٠ – ١٣٨٩م)– والذي عاصر جزء منه فترة بحثنا– فقد كرس المماليك جهودهم للتجارة وتأمين طرقها، ووضعوا القوانين لحقوق الملاحة، وفتحوا بذلك أمام بلادهم آفاقاً جديدة لتجارة الكارم[٣]. فعمروا الموانئ وأمنوا طرق المواصلات لمرور السفن. كما اهتموا

---

١) الفندق: اشتق اسمه من الكلمة اليونانية Pandnkeium، ونقلت إلى اللغة الايطالية لتدل علي المبني الذي أسفله مخازن وأعلاه حجرات نوم لسكني الأجانب. كان يشار في القرون الوسطي الي هذه الفنادق بكلمات : باللاتينية alfundega , fondigum , fondegus, fundigus, fonticus, fondaco، وبالايطالية fondech، وبلغة الكاطلان fondigues، وبالفرنسية FondÉGUS ، ويُعرف في مصر باسم فندق وفي بعض الأحيان وكالة وفي الشام وتركيا باسم الخان، انظر : Un Traité de paix et de commerce conclu pour dix ans entre Jacques Ier, roi d'Aragon et de Majorque seigneur de Montpellier, et Abou-Abd-Allah-Mahommed-El-Mostancer-Billah, roi de Tunis.pp٢٨٠ – ٢٨٤, Traité conclu pour quinze ans entre Pierre III, roi d'Aragon et de Sicile, et Abou-Hafs, roi de Tunis,pp٢٨٦ – ٢٩١, ، محمد عبد الغني الأشقر: مرجع سابق، ص٢٠٦، ٢٠٧، أحمد إسماعيل الجمال: مرجع سابق، ص١٣٠، شرقي نوارة: مرجع سابق، ص٢٤١،

٢) ابن دقماق:الانتصار لواسطة عقد الأمصار، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت د.ت، جـ١، ص٤٠، شوقي عبد القوى عثمان حبيب: مرجع سابق، ص٤٥، ٤٦، محمد عبد الغني الأشقر: مرجع سابق، ص٥٦،٥٥.

٣) يرى البعض أن الكارميين اسم لمجموعة من التجار المسلمين كان نشاطهم يمتد عبر معظم مراكز التجارة في دولة الأيوبيين والمماليك خاصة فيما يتعلق بتجارة التوابل. وكان الفلفل

بالمحافظة على النقل عبر النيل والترع وطرق القوافل عبر الصحراء، وقاموا بتنظيم القوافل وتزويدها بالإدلاء الذين كانوا يعرفون الطريق بعلامات لا يعرفها غيرهم، كما يعرفون موارد الماء[1].

obeikan.com

والبهار من أهم سلع تجارة الكارم، انظر القلقشندي: مصدر سابق، جـ٤، ص٣٢، جـ٥، ص٢٨٠، ٢٨١، محمد عبد الغني الأشقر: مرجع سابق، ص٢١، ٢٢.

١) المقريزي: السلوك، جـ١، ص٤٨٠، ٥٢٦، جـ٢، ص٧، ٢٦، ٣٢، ١٠٦، المواعظ، جـ٢، ص٥٤٧، ٥٧٥، زكي النقاش: العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والفرنج، دار الكتاب اللبناني١٩٥٨م، ص٩٨، شوقي عبد القوى عثمان حبيب: مرجع سابق، ص٤٦، ٤٧، محمد عبد الغني الأشقر: مرجع سابق، ص٦٨.

ب – العلاقات الدولية:

تمثلت العلاقات الدولية في تلك الفترة في شكليين أساسيين هما، صراعات حربية وما ارتبط به من أعمال قرصنة، وعلاقات دبلوماسية وما أرتبط بها من معاهدات واتفاقيات دولية، وسوف نعرض لهذين الشكلين ومدى تأثيرهما على النشاط التجاري البحري لبلاد المغرب الأدنى فيما يلي .

١ – الصراعات الحربية والقرصنة:

كان هناك صراع حربي ذات أساس ديني بين القوى النصرانية والإسلامية، اختلطت بصراع المصالح بين القوى المتحاربة خاصة التجارية منها. أثرت بشكل واضح على التجارة البحرية لبلاد المغرب الأدنى. ويظهر الصراع العسكري بشكل واضح في فترة البحث في حدثين رئيسيين هما، احتلال النورمان لبعض لمدن ساحل المغرب الأدنى في عصر الدولة الزيرية عام (٥٤٣هـ/١١٤٨م)، والحملة الصليبية في عصر الدولة الحفصية عام(٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م). أما احتلال النورمان لمدن ساحل المغرب الأدنى، فقد أصبحت الموانئ من طرابلس إلى بونة تحت الاحتلال النورماني ، فتقلصت تجارتها وقضى على المهدية كمركز أساسي للتجارة البحرية، وباحتلال النورمان لمدن الساحل الإفريقي والإجهاز على دولة بني زيري، عاد الحوضان الأوسط والغربي للبحر المتوسط إلى منطقة النفوذ الأوربي، بعد أن كان هذا البحر في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي بحراً عربياً، وأصبحت سفن جنوه تقوم بدور الوسيط في النقل البحري[١].

١) ابن عذاري: مصدر سابق، جـ١، ص٣١٢، عز الدين عمر موسي: النشاط الاقتصادي، ص٢٦٥، ابن غلبون الطرابلسي: مصدر سابق، ص٤٢، ٤٣، حسن خضيري أحمد: مرجع سابق، ص١٠٣، ١٠٤.

obeikan.com

أما الحملة الصليبية على تونس في عصر الدولة الحفصية فقد تعرضت الدولة الحفصية لهجمات نصرانية همجية يقودها لويس التاسع ملك فرنسا في عام ٦٦٩هـ/١٢٧٠م أي بعد عشرون عاماً من غزوته الخائبة لمصر، إلا إنها أخفقت بسبب الوباء الذي عصف بها وعصف بحياة الملك نفسه(١).

وقد أسست هذه الصراعات العسكرية لاستمرار القرصنة البحرية، والتي نشأت منذ وقت مبكر ولكن أخذت طابع رسمي في تلك الفترة سواءً من النصارى أو المسلمين، ولم يكتف القراصنة خاصة في فترة البحث بالتعرض للسفن والمراكب التجارية في عرض البحر، بل كانوا يغيرون علي الشواطئ والموانئ فينهبون ويأسرون. ثم فرضوا الإتاوات على بعض المدن مقابل عدم التعرض لها(٢).

قامت القرصنة بدعم من الحكومات النصرانية بالهجوم علي سفن وشواطئ المسلمين. وتشير أحدى رسائل الجنيزة إلى الاعتداءات المتكررة والهجمات التي كان يشنها النورمان على السفن الإسلامية؛ بالإضافة إلى نهب وسبي معظم ركابها، ونشر جواتين وثيقة جنيزة ترجع لعام٤٥٢هـ /١٠٦١م تذكر تعرض سفينة كانت مبحرة من المهدية عبر صقلية إلى الإسكندرية إلى هجوم من النورمان، وفي تلك الفترة أوجدت جنوة وبيزة بعض النفوذ لهما على جزيرة كورسيكا المجاورة. ثم وسعت

---

١) ابن قنفذ القسنطيني: مصدر سابق، ص١٣٢،١٣١، وثيقة الصلح بين المستنصر الحفصي والصليبيين، نشر ممدوح حسين على حسين: الحروب الصليبية في شمال افريقية وأثرها الحضاري [سنة ٦٦٨-٧٩٢هـ/١٢٧٠-١٣٩٠م]، ص٢٦٠-٢٦٦، ٧٠٩-٧١٢، احمد الطويلي: مرجع سابق، ص٦٦-٦٩، علي محمد الصلابي: مرجع سابق، ص٣٤٣.

٢) المقري: أزهار الرياض، ج٣، ص١٥، هشام أبو رميله: مرجع سابق، ص٣٩٣، ٣٩٤، حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، ص٢٩٢، زاهر رياض: مرجع سابق، ص١٥٧،
William Heywood : A History OF Pisa "Eleventh and Twelfth Centuries", Cambridge University Press , London ١٩٢١, pp٣٢ , ٣٣ , Hilmar C. Krueger ; Genoese Trade with Northwest Africa in the Twelfth Century , Speculum, Vol. ٨, No. ٣ (Jul., ١٩٣٣) , p٣٧٧ .

obeikan.com

بيزة مجال نشاطها بالقيام بغارة كبيرة على المركز البحري للمسلمين في بلرم عام٤٥٤ هـ/١٠٦٣م، واستولت في تلك الغارة على غنائم كثيرة[١].

وقد استمر ذلك الشكل الرسمي للقرصنة من الجانب النصراني حتى عصر الحفصيين، فعلى سبيل المثال في عام٦٨٣هـ/١٢٨٤م أخذ النصارى بقيادة أمير البحر المنطلق من صقلية روجير دي لوريا جزيرة جربة وأسروا من شبابها ثمانية آلاف وقتلوا الصغار ونهبوا الأمتعة والأموال، فحملوا ما نهبوه من أموال ومتاع الكثير في سفنهم التي هي نحو السبعين وفي سفن الجزيرة التي هي نحو الثلاثين[٢].

كل ذلك حدا بحكام المغرب الأدنى في تلك الفترة برد رسمي لتلك الهجمات النصرانية، فقد دفع ذلك بني زيري وبني حماد إلى الغزو البحري ضد مراكب النورمان، للدفاع عن موانيهم ومدنهم الساحلية التي أصبحت عرضة للهجوم، فقد أولى يحيى بن تميم عمليات الغزو في البحر اهتمام كبير، متمثلة في غارات خاطفة ومناوشة السفن التجارية المسيحية بدون انقطاع، بواسطة مجموعات صغيرة من المراكب، لا تترك المجال لردود فعل العدو إلا في حدود ضيقة للغاية. ذلك هو حسبما يبدو برنامج يحيى الذي طبقه خلفاؤه من بعده، وبفضل تلك الخطة التي تتضمن أقل ما يمكن من المخاطر وأكثر ما يمكن من المنافع، سمحت الغزوات البحرية الإفريقية لما بلغت أوج نشاطها، بتضليل العدوّ ونشر الرعب في كامل

---

١) دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية، ترجمة عطية القوصي، وكالة المطبوعات، الكويت، الطبعة الاولى١٩٨٠م، ص٢٣٧، ارشيبالد. ر. لويس: مرجع سابق، ص٣٧١–٣٧٣.

Goitein.S.D : A Mediterranean Society , London , ١٩٧١ , v١ , pp ٣٠٨ .

٢)ابن قنفذ القسنطيني: مصدر سابق، ص١٤٩، ١٥٠، روبار برنشفيك: مرجع سابق، جـ١، ص١٢٥،١٢٤، ١٢٩، أمين توفيق الطيبي: مرجع سابق، ص٢٤٩ – ٢٥٣.

obeikan.com

الحوض الغربي من البحر المتوسط، والهجوم على الجمهوريات الايطالية المطلة على البحر التيراني وسواحل البروفنس[١].

كما يظهر حالات للقرصنة الرسمية في عهد الموحدين من قبل حكام صغار نسبياً، مثل حكام بعض المدن المغربية الساحلية، وهذا ما حدث من قبل حاكم مدينة طرابلس عندما استولى على سفينة بيزية محملة بالقمح واعتقل جميع ركابها بما فيها من تجار، وذلك عن طريق سفينة حربية تابعة له من نوع غراب[٢].

ورغم أن إفريقية الحفصية كانت مراراً وتكراراً ضحية لذلك النظام في سفنها التجارية وفي أشخاص رعاياها ومكاسبهم، فقد استفادت أكثر مما تضررت منه. وقد كانت السفن المجهزة من طرف الحكومة أو من بعض التجار تنطلق من بجاية أو عنابة أو تونس أو المهدية. وكثيراً ما كانت تعيث فساداً في البحر وفي سواحل الحوض الغربي من البحر المتوسط، وقد كانت السلطة الحفصية تسعي بصورة رسمية على الأقل إلى مكافحة القرصنة ولا تتسامح إلا في الغارات الموجهة ضد سفن الدول التي لا تحميها معاهدات الصلح. ولكن الأهالي المسلمين لم يكونوا يميزون بين هذه العمليات وتلك، ولا ينظرون إلا إلى الأرباح والأمجاد الدينية المنجرة لهم عن أية عملية حجز يقوم بها غزاة المسلمين في البحر أو في الأراضي النصرانية. وتترتب علي تلك العمليات ردود فعل دبلوماسية أو عسكرية[٣].

---

١)الهادي روجي ادريس: مرجع سابق، جا، ص٣٣٤،

William Heywood : Op,Cit , , pp٣٢ , ٣٣ .

٢) رسالة من حاكم بيزة إلي الخليفة الموحدي أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، مؤرخة بـ ٢٣ ابريل١١٨١م، نشرها Amari Michel في كتابه Diplomi Arabi Del Archivio Fiorntino، ص٧، ٨.

٣) روبار برنشفيك: مرجع سابق، جـ٢، ص٩٥، ٩٦.

obeikan.com

ولم تكن القرصنة تخرج دائماً من بلاد المغرب أو من الجانب النصراني المقابل فقط، بل كانت أيضاً تخرج من بلاد الأندلس، حيث ظهرت حالات متعددة تمزج بين القرصنة والسياسة في تاريخ الأندلس، ومن أمثلتها مجاهد العامري في سردينيا في أوائل القرن الحادي عشر(١).

من جانب آخر فقد تلازم نشاط القرصنة بالجانب النصراني والمغربي في شكله الرسمي للدول مع القرصنة التي أخذت شكل هجمات فردية لمدن وجماعات رداً على نفس النشاط في الجانب الأخر، فعلى الجانب الأوربي كانت هناك مناطق عدة تمارس القرصنة، وهذا ما يفهم من بعض الفتاوى التي تعود لتلك الفترة، والتي تشير أن البحر المتوسط كان في هذه الفترة عبارة عن بحيرة للقرصنة الأوروبية. فقد بلغ من عتو قراصنة الغرب ولصوصه أن أصبحوا يجوبون البحر المتوسط، فيعترضون مراكب المسلمين، ويختطفون المسلمين من شواطئ المغرب لبيعهم في أوربا بيع السوائم(٢).

كما كان كثير من البحاره الأوربيين يستغلون حركتهم التجارية، فيقومون بأعمال القرصنة البحرية؛ مثال ذلك ما جرى في عام ٥٩٦ هـ/١٢٠٠م، إذ هاجمت سفينتان من بيزة مراكب إسلامية، فأسفر الهجوم عن أسر العديد من المسلمين، وانتهاك أعراض النساء، ونهب الأموال والبضائع. ثم اختطف القراصنة آلاف المسلمين من الشواطئ الإفريقية، وباعوهم في أسواق الرقيق بأوروبا وهي ما تعرف في الوثائق بقضية المسطحات(٣). كذلك يظهر من خلال قصة يرويها أحد

---

١) ابن القطان: مرجع سابق، ص٢٤٤، هشام أبو رميله: مرجع سابق، ص٣٧٨، ٣٧٩.

٢) المقري: أزهار الرياض، ج٣، ص١٥، عبد المالك بكاي: مرجع سابق، ص١٨.

٣) رسالة من عبد الرحمن بن ابي الطاهر الناظر بديوان افريقية الي حكومة بيزة، مؤرخة بـ ٥٩٦هـ، حول قضية المسطحات، Michel Amari في كتابه A Diplomi Arabi Del Archivio Fiorntino، تحت رقم٦، ص٢٣–٢٨، رسالة عن السيد أبى زيد عبد الرحمن بن أبي حفص

الأشخاص الذين تعرضوا للاسترقاق؛ نتيجة عملية قرصنة أن القراصنة الأوربيين كانوا يأسرون حتى الحجاج المسلمين من على السفن التجارية ويبيعونهم في بلاد النصارى(١).

أما في الجانب المغربي أيضاً كان هناك مدن وجماعات تمارس القرصنة، فمثلاً كان أهل جربة يمارسون القرصنة ويقطعون البحر على التجار والناس، كذلك كان أهل قريتي زواغة وزوارة بالقرب من طرابلس يقطعون الطريق على السفن البحرية ويمارسون القرصنة(٢).

بن عبد المؤمن والى تونس إلى تجار بيزة مشجعاً لهم للتردد على البلاد، في الفترة من ٥٨٣ – ٥٩٠، ص٢٩، ٣٠، رسالة من يوسف بن محمد صاحب ديوان تونس والمهدية إلي أحد كبار تجار بيزة، حول أحد الاسري في قضية المسطحات، نشرها Michel Amari في كتابه A Diplomi Arabi Del Archivio Fiorntino، تحت رقم٨، ص ٣١، ٣٢، رسالة من السيد أبي زيد عبد الرحمن إلى حكومة بيشة، حول قضية المسطحات، نشرها Michel Amari في كتابه A Diplomi Arabi Del Archivio Fiorntino، تحت رقم٩، ص٣٤،٣٣، رسالة من عبد الرحمن بن ابي الطاهر ناظر ديوان تونس الي حكومة بيزة ، حول شهادة اثبات باعتداء المراكب البيشانية على مركب للمسلمين في شهر شوال سنة ٥٩٦ هـ في قضية المسطحات، مؤرخة بتاريخ ٥٩٧ هـ، نشرها Michel Amari في كتابه A Diplomi Arabi Del Archivio Fiorntino، تحت رقم ١١، ص٣٨، ٤٢، رسالة من السيد ابو زيد عبد الرحمن بن عبد المؤمن بن علي والي تونس الي حكومة بيزة، حول قضية المسطحات وتأكيد علي حسن معاملة التجار من الطرفين، مؤرخة بتاريخ شهر رمضان٥٩٧ هـ، نشرها Michel Amari في كتابه A Diplomi Arabi Del Archivio Fiorntino، تحت رقم ١٣، ص٤٥ –٤٧، هشام أبو رميله: مرجع سابق، ص٣٩٣، ٣٩٤.

١) ابن منقذ: كتاب الاعتبار، تحقيق فيليب حتى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة د.ت، ص١٧٨، ١٧٩.

٢) التجاني: مصدر سابق، ص٢١١،١٢٥، ابن غلبون الطرابلسي: مصدر سابق، ص٣٨، عبد المالك بكاي: مرجع سابق، ص١٨.

obeikan.com

كما كانت هناك قرصنة منتشرة في البحر الأحمر خاصة في عصر الحروب الصليبية، حيث كان الروم ينزلون بسفنهم إلى البحر الأحمر لينقضوا على المسافرين والتجار المسلمين وأيضاً للهجوم علي موانئ إسلامية مثل ميناء عيذاب، فقد تعالت صرخات استغاثة التجار في هذا البحر من القرصنة، لذلك فقد قامت الدول المسيطرة على هذه المنطقة، مثل الدولة الفاطمية(٣٥٨ – ٥٦٧هـ/٩٦٩ – ١١٧١م) بحماية التجارة البحرية في هذا البحر من هجمات القراصنة من خلال تسيير دوريات عسكرية أو تعهد الدولة إلى التجار أنفسهم بحماية غيرهم من التجار[١].

وعلى الرغم من أن البحارة والمسافرين عانوا من القراصنة فوق مياه المحيط الهندي[٢] فإنهم لم يكونوا مصدر تهديد خطير بالقياس إلى قراصنة المتوسط، كما أن السفن التي عملت في المحيط كان بها مقاتلون إلى جانب الملاحين لحماية السفينة من خطر القرصان[٣].

---

١) ابن جبير: مصدر سابق، ص٣٢، ٣٣، محمد عبد الغني الأشقر: مرجع سابق، ص٤٥، عزيز سوريال: مرجع سابق، ص١٨٦،
Fishel :Jews in the Economic and Political Life of Medieval Islam , London ١٩٣٧ , pp.٧٥

٢) وصف المؤرخين والرحالة العرب المحيط الهندي كثيراً: حيث أشاروا أنه كان معروف ببحر الصين والهند والسند واليمن يمر بالصين أولاً ثم بالهند ثم بالسند ثم باليمن علي جنوبها وينتهي إلى باب المندب، وفيه من الجزائر نحو ثلاث مائة جزيرة بين عامرة وخالية، وعليه ممن جهة الجنوب بلاد الزنج، ثم بلد مقدشو ثم بلد سفالة وأرض الواق واق وأمم اخر ليس بعدهم إلا القفار والخلاء وعليه من جهة الشمال الصين من عند مبدئه ثم الهند ثم السند ثم سواحل اليمن من الأحقاف وزبيدو وغيرها ثم بلاد الزنج عند نهايته وبعدهم الحبشة، انظر: الإدريسي: مصدر سابق، جا، ص٩، الزهري: مصدر سابق، ص٣، ٤، ابن خلدون: المقدمة، ص٣٣، ٣٤.

٣) شوقي عبد القوي عثمان: تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية (٤١ – ٩٠٤ هـ/٦٦١ – ١٤٩٨ م)، المجلس الوطني للفنون والآداب، الكويت١٩٩٠، ص١٠٨.

كما كان للصراعات الدولية في تلك الفترة أيضاً تأثير سلبي آخر خاصة في عصر الموحدين، تمثل في ظهور ما يمكن أن نسميه (بالحصار التجاري) مع الدول أو القوي التي دخلت في صراع سياسي أو عسكري مع الموحدين، فمثلاً حين رفضت مدينة مالقة الخضوع للموحدين، فرض الموحدون عليها حظراً تجارياً، وهددوا بقتل كل من يحمل إليها نوعاً من أنواع البضائع التجارية[١].

إذن فقد كان هناك تأثيرات سلبية لتلك الصراعات على النشاط التجاري البحري، فهناك مقتطفات من وثائق الجنيزة وأصحابها المعاصرين لبعض تلك الإحداث تشير إلى بعض تلك الآثار. ففي إحدى وثائق الجنيزة من التاجر إبراهيم بن يجو في عدن إلى أخيه في المهدية والرسالة مؤرخة في ١٠جمادي الأولى٥٤٤هـ/١٥سبتمبر١١٤٩م، وكان صاحب الرسالة قد فارق أهله في المهدية منذ سنوات، يعبر فيها عن قلقه على مصير أهله في المهدية بعد استيلاء النورمان عليها عام٥٤٣هـ/١١٤٨م، لم يعد غريباً في ضوء هذه الاعتبارات أن يتدهور شأن تجارة المغرب، وإن لم تختف تماماً مما كان له جل الأثر علي حجم التبادل التجاري، وانتقال مركز الثقل من يد المغاربة، إلى أيدي الأوربيين وعلى الأخص الايطاليين[٢].

---

١) رسالة من عبد المؤمن بن علي بمراكش إلى طلبة سبتة جواباً على رسالتهم عن الحملة البحرية التي قادوها إلى مدينة ألمرية المحتلة من طرف النصارى منذ عام ٥٤٢ هـ، كتبها أبو جعفر بن عطية، في رسائل ديوانية موحدية ، تحقيق أحمد عزاوي، مطبعة الرباط نيت المغرب، الرباط، الطبعة الأولى٢٠٠٦م، ص٤١.

٢) A Letter from Abraham Ben Yiju to his Brothers and Sisters after His Safe Return, from India{Aden, ١١ September, ١١٤٩}, TS ١٠ J ١٠, f. ١٥, Published by Mordechai Akiva Friedman, Goitein. S.D: India Traders of the Middle Ages (Documents from the cairo Geniza) , the Ben – Zvi Institute Jerusalem , Brill , Leiden , Boston ٢٠٠٨, pp٦٨١-٦٨٧،

حسن خضيري أحمد: مرجع سابق، ص١٣٠، ١٣١.

obeikan.com

إلا أن تلك الصراعات العسكرية كان لها تأثير إيجابي على التجارة البحرية للمغرب الأدنى تمثل في شكلين أساسيين أولهما تنشيط التجارة في مدن مغربية وأن كانت علي حساب مدن أخري، وكذلك في عقد المعاهدات والاتفاقيات الدولية. أما دور تلك الصراعات في تنشيط التجارة البحرية في بعض المدن فيظهر جلياً في احتلال تونس مكان المهدية إذ استطاع بنو خراسان الذين استقلوا بها فرض الأمن فيها، وحافظوا على علاقات طيبة مع صقلية، وفتحوا مدينتهم لتجار المدن الإيطالية (خاصة بيزة التي منحت امتيازات خاصة) من حماية لمراكبها وتزويدها، وإعفاء تجارها من عشور بعض الصادرات أو تخفيضها[١].

٢ – المعاهدات الدبلوماسية:

عقدت الاتفاقيات والمعاهدات التجارية بين الأطراف المختلفة في حوض البحر المتوسط من أجل توفير الجو المناسب لتجارتهم، لاسيما مع كثرة تلك الصراعات وما تبعها من انتشار القراصنة في البحر المتوسط وتعدد جنسياتهم. لذلك قامت بعض الدول الأوروبية بعقد المعاهدات مع المسلمين[٢]، ونتيجة لأهمية هذه المعاهدات في تنشيط التجارة البحرية مع المغرب الأدنى، كان النصارى يبادرون في أغلب الأحيان بإجراء المفاوضات لعقد الاتفاقيات والمعاهدات التجارية[٣].

---

١) رسالة من عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الحقّ بن أبي خرسان حاكم تونس إلى حكومة بيزة، لتوضيح خلوا سفينة جاءت من الاسكندريه من الاسرى البيزيين وتسهيلات للتجار البيزيين في تونس خاصه فيما يتعلق بالضرائب، نشر Michel Amari : ADiplomi Arabi Del Archivio Fiorntino ١٨٦٣، تحت رقم ١، ص١-٦.

٢) هشام أبو رميله: مرجع سابق، ص٣٩٤، ٣٩٥.

٣) اتفاقية سلام وتجارة بين المنصور الموحدي وحكومة بيزة ، ص١٧– ٢٢، روبار برنشفيك: مرجع سابق، جـ٢، ص٤٥٢- ٤٥٤.

وتعتز تونس بكونها أبرمت في٥٥٢هـ/ يوليو١١٥٧م مع بيزة، في عهد عبد الله بن خراسان معاهدة من أقدم معاهدات التجارة والملاحة المبرمة بين بلاد المغرب وبلاد النصارى؛ التي جعلتها تستفيد كغيرها من موانئ إفريقية من المعاهدات الموحدية التي سمحت لها بعلاقات مفيدة لاسيما مع جنوة وبيزة[1].

وقد نجحت كل من بيزة وجنوة والبندقية وصقلية ثم مرسيليا في وقت لاحق في عقد المعاهدات التجارية مع خلفاء الموحدين، ومنها ما عقد معاهدات مماثلة مع ولاة إفريقية بتفويض من هؤلاء الخلفاء تكفل استمرار التبادل التجاري بينها وبين إفريقية. ففي عام٥٥٦هـ/١١٦١م وقعت جنوة معاهدة تجارية مع عبد المؤمن بن علي خليفة الموحدين الأول كانت تجديداً للمعاهدة المبرمة بين الطرفين في عام

لقد كانت المعاهدات تناقش طويلاً ثم يقرر نصها النهائي ثم يصادق عليها بتشبيك الأيدي أو بالقسم. وتسلم في الغالب للسفراء رسالة تنص علي انعقاد المعاهدة. وينص في المعاهدات علي أسماء السفراء من المفاوضين ويذكر فيها أن الله خير ضامن وخير شهيد...هذا علاوة علي حضور المترجمين والعدول والأمناء، وكان نص المعاهدة يقع في نسختين ويوضع في رسالتين تختم كل واحدة منهما بالشمع الأحمر ويوقع الملك عليها بخاتمه ويرجع السفير إلي بلاده حاملاً معه الترجمة باللاتينية للمعاهدة المحررة بالعربية. وبعد ذلك يأتي دور الملك المسيحي الذي كان يصادق علي المعاهدة بواسطة توقيعه بخاتمه في النسختين المترجمتين،انظر:اتفاقية سلام وتجارة بين المنصور الموحدي وحكومة بيزة، وهي مؤرخة باوائل رمضان٥٨٢هـ، نشرها Michel Amari في كتابه ADiplomi Arabi Del Archivio ، تحت رقم ٥، ص١٧–٢٢، اتفاقية صلح بين الخليفة الحفصي أبي يحيي زكرياء وحكومة بيزة في عام ٧١٣هـ، نشر Michel Amari : A Diplomi Arabi Del Archivio ، تحت رقم ٢٩، ص٨٦– ٩٧، عبد الهادي التازي: مرجع سابق، جـ٢، ١٨٦٣ Fiorntino - Un Traité de Paix et de commerce conclu pour quinze ans par l´envoyé des consuls de la république de Génes et le roi almohade de Maroc, Abd-el-Moumen. en ١١٦٠, Muratori, Script. rerwn Italic, t. VI; Annales de Caffaro, col. ٢٧٧, publié par Mas Latrie ; Traite de Paix et de Commerce les Relatio Divers et Documents des Chrectiens Avec les arabes de L'Afrique Septentrionale au Moyen – Age, Paris ١٩٦٠.p١٠٨ . ص٢٥– ٢٧.

١) رسالة من عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الحقّ بن أبي خراسان إلى حكومة بيزة ، ص١ – ٦، روبار برنشفيك: مرجع سابق، جـ١، ص٥٤.

obeikan.com

٥٤٨هـ/١١٥٣م[١]، وفي عام٥٦٣هـ/١١٦٨م حصلت بيزة على معاهدة مماثلة من أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن مدتها عشرون عاماً[٢]، والتي جددها ابنه المنصور عام٥٨٢هـ/١١٨٦م[٣]، ثم الناصر عام٦٠٨هـ/١٢١١م[٤]. وكانت هذه المعاهدات التي عقدت مع هؤلاء الخلفاء شاملة لجميع ولايات دولتهم وفي طليعتها إفريقية بطبيعة الحال[٥].

ومنذ تولي أبي زيد عبد الرحمن ولاية إفريقية (نحو عام ٥٩٧ – ٥٩٩ هـ/ ١٢٠٠ – ١٢٠٢م) كان للبلاد الأوربية علاقات متواصلة مع هذا الوالي ومع الذين تولوا الولاية من بعده ، إذ خطت صقلية وحاكمها الملك فردريك الثاني(٥٩٠ – ٦٤٨ هـ/١١٩٤ – ١٢٥٠م)[٦] خطوة هامة في هذا المضمار بعد ذلك بعشرة أعوام ، ففي

---

١) Un Traité de Paix et de commerce conclu pour quinze ans par l´envoyé des consuls de la république de Génes et le roi almohade de Maroc , Abd-el-Moumen , p١٠٨, Hilmar C. Krueger ; Op,Cit, p٣٧٩ .

٢) ممدوح حسين علي حسين: مرجع سابق، ص٦٥٣ – ٦٥٥.

٣) اتفاقية سلام وتجارة بين المنصور الموحدي وحكومة بيزة ، ص١٧ – ٢٢.

٤) ممدوح حسين علي حسين: مرجع سابق، ص٦٥٣ – ٦٥٥.

٥) Un Traité de Paix et de commerce conclu pour quinze ans par l´envoyé des consuls de la république de Génes et le roi almohade de Maroc , Abd-el-Moumen , p١٠٨ , - Hilmar C. Krueger ; ; Op,Cit, p٣٧٩,

٦) فريدريك الثاني: من أسرة هوهنشتاوفن، تولى منذ طفولته عام ٤٩٥هـ/١١٩٨م، وأصبح إمبراطور لألمانيا وإيطاليا وبورگندي. وكان أيضاً ملك صقلية بالوراثة عن أمه. ولقبه الأصلي كان ملك صقلية، والذي احتفظ به فريدريك الأول منذ٥٩٥هـ/ ١١٩٨م حتى وفاته. وفي١٨ فبراير ١٢٢٩م، أثناء الحملة الصليبية السادسة، وقع فردريك هدنة لمدة عشر سنوات مع الملك الكامل، استولى بموجبها بعدها على القدس والناصرة وبيت لحم بدون

obeikan.com

منتصف جمادي الآخر عام ٦١٨هـ /٥ أغسطس عام ١٢٢١م أرسل سفيره فيبالد(Vibald) إلى تونس حيث استطاع هذا عقد معاهدة تجارية مع الوالي أبي إسحاق إبراهيم تتسم بالدقة والوضوح، إذ من ضمن ما ورد فيها من بنود، وجددت شروط تقتضي بإقرار السلام بين الجانبين لمدة عشر سنوات وحق البلدين في ممارسة النشاط التجاري، وقد أصبحت هذه الشروط نموذجاً احتذي به في المعاهدات التجارية التالية بين إفريقية والدول المسيحية. وفي عام ٦٢٠هـ /١٢٢٣م تمكن سفيراً جنوة (Marchisio Seriba وSimon de Bulgaro) من الحصول علي معاهدة تجارية لبلدهما من والي إفريقية السيد أبي العلاء المؤمني، كان من شروطها حصول الجنويين على فندق وحمام ومخبز في مدينة تونس ، أسوة بالبيازنة الذين كانوا قد حصلوا علي مثل ذلك منذ مدة طويلة[١].

ومنذ استقلال الأمير أبي زكريا الأول الحفصي بإفريقية عن الدولة الموحدية، استحوذت العلاقات التجارية لدولته الفتية مع الدول المسيحية على قسط كبير من اهتمامهم، يدل على ذلك كثرة المعاهدات التجارية التي عقدها معها[٢]. فقد عقدت معاهدة بين تونس والبندقية في (٦ذي الحجة٦٢٨هـ /أكتوبر– نوفمبر عام١٢٣١م) وكانت مدتها أربعين عام[٣]. أما بيزة فقد عُقدت بينها وبين تونس اتفاقية (أواخر

قتال أو مساندة من البابا، انظر: محمود سعيد عمران: المغول والاوربيون والصليبيون وقضية القدس، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية٢٠٠٣م، ص١٨٤ – ١٨٧ .

١) ممدوح حسين علي حسين: مرجع سابق، ص٦٥٣ – ٦٥٥ .

٢)المرجع السابق: ص٦٥٥ – ٦٥٧ .

٣) Un Traité de paix et de commerce négocié pour quarante ans par Pierre Delfino entre la république de Venise et le roi de Tunis, en٥ octobre ١٢٣١ (A tunis). MM. Tafel et Thomas , Fontes rerum Austriacarum, t. XIII. Documents de Venise,t. II, p.٣٠٣ Vienne, ١٨٥٦, publié par Mas Latrie; Traite de Paix et de Commerce les Relatio Divers et Documents des Chrectiens Avec les arabes de L'Afrique Septentrionale au Moyen – Age, Paris ١٩٦٠., pp١٩٦ – ١٩٩ .

ممدوح حسين علي حسين: مرجع سابق، ص٦٥٥ – ٦٥٧ .

obeikan.com

أغسطس عام٦٣١هـ/ ١٢٣٤م) كانت مدتها ثلاثين عام[١]. كذلك عُقدت اتفاقية بين تونس وجنوة (في ١٠ يونيو عام٦٣٣هـ/ ١٢٣٦م) على يد سفرائها كانت مدتها عشر سنوات فقط[٢].

وأما صقلية فقد توثقت العلاقات بين أبي زكريا الأول والإمبراطور فردريك الثاني، حيث تم في عام ٦٣٦هـ/١٢٣٩م معاهدة بين الطرفين[٣]. كما أسرعت كل من جمهورية جنوة وجمهورية البندقية إلى إرسال سفير إلى تونس لإعادة السلم أو توطيدها. وقد أبرمت هناك معاهدتان، الأولي في٣٠ رجب٦٤٩ هـ الموافق١٨أكتوبر١٢٥١م لمدة عشرة أعوام بواسطة المبعوث الجنوبي غليوم شيبو بمساعدة قنصل جنوة بتونس رويالد ماشيا، والثانية في أول محرم ٦٤٩هـ الموافق أول ابريل عام١٢٥١م لمدة أربعون عام بواسطة مبعوث البندقية فيليب جيولياني. هذا وإن المعاهدة الأولى لم تغير قط معاهدة عام٦٣٣هـ/١٢٣٦م التي ألغيت منذ

---

١) Un Traité de commerce conclu pour trente ans entre la république de Pise et le roi de Tunis, Abou-Zakaria-Yahia, fils d'Abou-hafs, en ١٢٣٤ ou ١٢٢٩, fin du mois d'aout (A tunis). MM. Tafel et Thomas, Fontes Rerum. Austriacarum, t. XIII. Documents, de Venise, t. II, p.٣٠٠, publié par Mas Latrie; Traite de Paix et de Commerce les Relatio Divers et Documents des Chrectiens Avec les arabes de L'Afrique Septentrionale au Moyen – Age, Paris ١٩٦٠,pp٣١- ٣٥,

ممدوح حسين علي حسين: مرجع سابق، ص٦٥٥ – ٦٥٧ .

٢) UnTraité de commerce , conclu dix aus, entre la république de Gênes et abou-Zakaria-Yahia, roi de Tunis et de Tripoli, en ١٢٣٦, ١٠ juia.(A Tunis), pp ١١٦ – ١١٨ .

ممدوح حسين علي حسين: مرجع سابق، ص٦٥٥ – ٦٥٧ .

٣) Un Traité de paix et de commerce conclu pour dix ans entre l'empereur Frédéric II, roi de Sicile, et Abou-Zakaria-Yahia, roi de Tunis, en ١٩ ou ٢٠ avril ١٢٣١, par Vibald, envoyé de l'empereur, Leibniz, Codex juris gent. Diplom, t. I, p.١٣; Lunig, Codex Italiae diplom, t. II, p. ٨٧٨, publié par Mas Latrie; Traite de Paix et de Commerce les Relatio Divers et Documents des Chrectiens Avec les arabes de L'Afrique Septentrionale au Moyen – Age, Paris ١٩٦٠, pp١٥٣ – ١٥٥ ,ممدوح حسين علي حسين : المرجع السابق ، ص٦٥٥ – ٦٥٧ .

obeikan.com

أربع سنوات خلت لانتهاء مدتها، وأما المعاهدة الثانية فقد استعادت بعبارات متماثلة للغاية أحكام اتفاقية عام٦٢٩هـ/١٢٣١م، ولكنها أكملتها بالنسبة إلي عدة نقاط مثل الإعفاء من أي أداء على الذهب أو الفضة أو الأحجار الكريمة التي يبيعها أهالي البندقية في دار السكة أو مباشرة إلي السلطان، والسماح لهم بتصدير الرصاص من إفريقية بدون رسوم وتوضيح الحريات التي يتمتعون بها في البلاد الحفصية والتوسيع من نطاقها، لاسيما حق إصلاح الكنيسة الموجودة في فندقهم وتوسيعها(١).

أما عن اتفاقية الصلح بين المستنصر الحفصي والنرمان بعد الحملة الصليبية علي تونس فقد اشتملت على تسعة عشر بنداً، تنص على ضمان الأمن للمسلمين من رعايا المستنصر في بلاد الإفرنج وكذلك الأمن لرعايا الممضين من النصارى في بلاد افريقية. كما أن الاتفاقية تضمن حرية التجارة بين الجانبين خاصة التردد والإقامة في بلادهما، وعدم مساعدة الأعداء من الطرفين وطرد المهاجرين المعارضين وذلك لمدي خمس عشرة سنة بالإضافة إلى تبادل الأسري . كما كانت هذه الاتفاقية تشجع تجار تونس علي الاتجار في الشواطئ الأوربية(٢).

---

١) Un Traité de commerce , conclu dix ans, entre Abou-Abd-Allah Mohammed Monstancer-Billah, roi de Tunis, et la république de Génes, par Guillelmino Cibo, ambassadeur génois, en ١٨ octobre ١٢٥٠ (A tunis). Publié par m. de Sacy, Notices et extraits des manuscrits, ete. T. XI, p.٢٢, publié par Mas Latrie; Traite de Paix et de Commerce les Relatio Divers et Documents des Chrectiens Avec les arabes de L'Afrique Septentrionale au Moyen – Age, Paris ١٩٦٠, pp١١٨ – ١٢١, UnTraité de paix et de commerce pour quarante ans entre Marin Morosini, doge de Venise, et Abou-Abd-Allah el-Mostancer-Billah, Roi de Tunis et de Tripoli, pp١٩٩ – ٢٠٢ ,

روبار برنشفيك: مرجع سابق، جـ١، ص٧٣.

٢) وثيقة الصلح بين المستنصر الحفصي والصليبيين: ص ٧٠٩ – ٧١٢، احمد الطويلي: مرجع سابق، ص٦٦-٦٩.

obeikan.com

وبعد انتهاء الحملة الصليبية علي تونس، استأنفت كل من البندقية وجنوة نشاطها التجاري مع المغرب الأدنى، حيث أبرمتا معاهدتين بتونس على انفراد في٦٦٩هـ /١٢٧١م و٦٧٠هـ/١٢٧٢م، وذلك بواسطة سفير البندقية جان داندولو وسفير جنوة أوبيزون أدالاردو، وهاتان المعاهدتان النافذتان مدّة أربعة أعوام بالنسبة لمعاهدة البندقية ومدّة عشرة أعوام بالنسبة لمعاهدة جنوة، قد استعادتا بنود عامي٦٤٧هـ/١٢٥٠م و٦٤٨هـ/١٢٥١م السابق ذكرهما، مع بعض التعديلات أو الزيادات الطفيفه(١). كما عقد سفير جنوة بينجول مع مندوبين لملك تونس، لتلبية مطالب التجار الجنويين الذين يتاجرون مع تونس وذلك في ٦٨٥هـ/ ١٢٨٧م(٢).

أما مملكة أراجون فبعد أقلّ من ثلاثة أشهر من رحيل الصليبيين، أبرم مبعوث المستنصر عام٦٦٩هـ/١٢٧١م في بلنسية معاهدة مع ملك أرجونة. وتعتبر تلك المعاهدة هي أقدم معاهدة مبرمة بين الدولة الحفصية ومملكة أرجونة، من بين المعاهدات التي بلغتنا نصوصها، قد كانت سارية المفعول لمدّة عشرة أعوام، ابتداء

---

١) Un Traité négocié par Jean Dandolo, ambassadeur vénitien, renouvelant pour quarante ans le traité de ١٢٥١. Lettre d'Abou-Abd-Allah-Mahommed el-Mostancer-Billah, Roi de Tunis, à Laurent Tiepolo, doge de Venise, précédant le tratié, en au mois de juin ١٢٧١ (A tunis). Venise. Archives générals. Libri Pactorum, I, fol.١٦٥ v; et Lib. II, fol.٤ v. MM. Tafel et Thomas, font, publié par Mas Latrie; Traite de Paix et de Commerce les Relatio Divers et Documents des Chrectiens Avec les arabes de L'Afrique Septentrionale au Moyen– Age ,Paris ١٩٦٠, pp٢٠٣ – ٢٠٦ . Un Traité de commerce, conclu dix ans entre la république de Gênes et l'émir Abou-Abd-Allah Mohammed Monstancer-Billah, roi de Tunis, par Opzon Adalard, ambassadeur géńois, en ٦novembre, ١٢٧٢ (A tunis), publié par Mas Latrie; Traite de Paix et de Commerce les Relatio Divers et Documents des Chrectiens Avec les arabes de L'Afrique Septentrionale au Moyen – Age, Paris ١٩٦٠, pp١٢٢ – ١٢٥,

روبار برنشفيك: مرجع سابق، جـ١، ص٩٦، ٩٧.

٢) Convention entre Lucheto Pignoli, ambassadeur de la république de Gênes, et les commissaries nommés par le roi de Tunis, pour satisfaire aux reclamations de divers marchands génois qui faisaient le commerce avec Tunis, en ٩juin, ١٢٨٧ (A tunis), publié par Mas Latrie ; Traite de Paix et de Commerce les Relatio Divers et Documents des Chrectiens Avec les arabes de L'Afrique Septentrionale au Moyen – Age ,Paris ١٩٦٠, pp١٢٥ – ١٢٧.

من تاريخ عيد القديس يوحنا المقبل. ويبدو أنها لم تأت بشيء جديد فيما يتعلق بإقامة الأجانب في إفريقية وتعاطيهم للتجارة، ولعلها قد أوضحت التعهدات المتبادلة بين الطرفين بخصوص حفظ أمنهما في البحر والسواحل كم كان الشأن في الماضي(١). وبعد هذا التاريخ بحوالي ثلاثة عشرة عام بادر أبو حفص بإرسال بعثة إلى بيدرو ملك أرجون للتفاوض معه في شأن السلام بينهما، ووقّع المبعوثون المسلمون الأربعة على المعاهدة عام٦٨٣هـ/ ١٢٨٥م قد استعادت أولاً جميع بنود معاهدة٦٦٩هـ/١٢٧١م بصورة تكاد تكون حرفية، وذلك فيما يتعلق بالأمن والملاحة والأداءات الجمركية، ولكن لمدّة خمسة عشر عام بدلا من عشرة أعوام، كما أضيفت إليها بعض البنود الأخرى الموالية كلّها للنصارى ولمملكة أرجونه، مثل الاعتراف بحرية ممارسة النصارى لشعائرهم الدينية والسماح لهم بقرع أجراس كنائسهم في إفريقية، والاعتراف بحق الصقليين والقطلونيين في بناء فنادقهم في أية بلدة يختارونها وحقّ ملك أرجونه في تعيين من يشاء من القناصل في إفريقية، وكذلك تعيين قائد جند النصارى في إفريقية، وحقّ القناصل المذكورين في زيارة السلطان مرة في الشهر على الأقل. وحق اختيار القطلونيين لجباية ضريبة الملح في تونس(٢).

---

١) Un Traité de paix et de commerce conclu pour dix ans entre Jacques Ier, roi d'Aragon et de Majorque seigneur de Montpellier, et Abou-Abd-Allah-Mahommed-El-Mostancer-Billah, roi de Tunis, en ١٢٧١, ١٤,février. revu sur l'original de l'expédition notariée faite à Tunis, en ١٢٧٨ pour le roi de Majorque, par Mas Latrie; Traite de Paix et de Commerce les Relatio Divers et Documents des Chrectiens Avec les arabes de L'Afrique Septentrionale au Moyen – Age,Paris ١٩٦٠,pp٢٨٠ – ٢٨٤ ,

روبار برنشفيك : مرجع سابق ، جـ٢ ، ص٩٥ .

٢) Un Traité conclu pour quinze ans entre Pierre III, roi d'Aragon et de Sicile, et Abou-Hafs, roi de Tunis, relativement au commerce de leurs États et au tribut dû par le roi de Tunis au roi de Sicile depuis le règne de Charles d'Anjou. Capmany, en ١٢٨٥, ٢ juin, t. IV, p. ٩. Archives de la couronne d'Aragon. Ex regest. Petri III, ab ann. litterœ

obeikan.com

وكان لتلك المعاهدات أثر كبير على التجارة البحرية للمغرب الأدنى ؟ ظهر ذلك التأثير في عدة نقاط أساسية يمكن أن نجملها كالأتي :

– كانت هذه الاتفاقيات والمعاهدات سبيلاً مهماً لفض الصراعات العسكرية بين الطرفين، وبالتالي توفير بيئة آمنه للنشاط التجاري البحري بين الطرفين، خاصة فيما يخص حماية السفن والتجار والسلع بين تلك الأطراف. رغم وقوع بعض حوادث القرصنة. والعمل علي استمرار التجارة المنتظمة بين موانئ المغرب الأدنى وبلاد المغرب عموماً من جهة وبين الدول الأوربية آنذاك خاصة المدن الإيطالية ، علي الرغم من الصراع العسكري الذي كان يُستأنف من وقت لأخر(١).

– وفرت تلك المعاهدات الدبلوماسية إطار واضح لتحديد الضرائب التجارية، بل تعدت هذا الأمر لتوفر ما يمكن أن نسميه التمييز الضريبي، حيث شملت بعض المعاهدات والاتفاقيات تخفيضات ضريبية لبعض الأطراف على حساب أطراف أخرى(٢).

B, fol. ٨١, publié par Mas Latrie ; Traite de Paix et de Commerce les Relatio Divers et Documents des Chrectiens Avec les arabes de L'Afrique Septentrionale au Moyen – Age ,Paris ١٩٦٠.pp٢٨٦ – ٢٩١,

روبار برنشفيك: مرجع سابق، جـ٢، ص٩٥.

١) وثيقة الصلح بين المستنصر الحفصي والصليبيين، ص ٧٠٩-٧١٢، عبد الواحد المراكشي: وثائق المرابطين والموحدين، ص٢٣٠، ف.هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ترجمة احمد محمد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٥م، ص١٣٦، ١٣٧، عز الدين عمر موسي: النشاط الاقتصادي، ص٢٦٥، جوزف شاخت، كليفورد بوروورث: تراث الاسلام، جـ١، ص٣٠٣، أتورى روسي: مرجع سابق، ص١٠٥.

٢) اتفاقية سلام وتجارة بين المنصور الموحدي وحكومة بيزة، ص١٧– ٢٢، روبار برنشفيك: مرجع سابق، جـ١، ص٥٥، ٦٤ –٦٧، ٧٣، ٧٤، عز الدين عمر موسي: النشاط الاقتصادي، ص٢٦٥.

obeikan.com

– وفرت تلك المعاهدات حرية انتقال التجار بين موانئ تلك البلاد، والإقامة فيها وتوفير الأماكن الضرورية لذلك مثل الفنادق[١].

– وفرت تلك المعاهدات ضمان وجود مصدر ثابت لبعض السلع الضرورية التي لا غني عنها وأهمها القمح. وتحديد أنواع البيع ونوعية المعاملات التجارية بين الأطراف التي دخلت في تلك العلاقات[٢].

إذن فقد كانت الحياة الاقتصادية لاسيما التجارية منها في البلاد الإسلامية أكثر من أي مكان آخر من صنع الوضع السياسي والأمني في تلك البلاد وفي محيطها الإقليمي والدولي. فقد أثرت الأحوال السياسية والأمنية الداخلية في بلاد المغرب الأدنى علي الأحوال الاقتصادية لاسيما التجارية منها وخاصة التجارة البحرية . ففي خلال فترة البحث توالى على حكم بلاد المغرب الأدنى ثلاث دول رئيسية هي الدولة الزيرية والدولة الموحدية والدولة الحفصية، بالإضافة إلي مجموعة من الدويلات أو الإمارات الصغيرة التي كانت تظهر في المدن الرئيسية أثناء فترات ضعف الدول الرئيسية الثلاثة. كما شملت تلك الفترة ظهور الهجرة الهلالية وكان لكل تلك الأحداث أثره الايجابي أو السلبي على النشاط التجاري البحري. كما جاورهم دول مغربية أخرى مثل الدولة الحمادية والدولة المرابطية وكان لهم دورهم في تشكيل الوضع السياسي واستقراره مما انعكس بالطبع على النشاط التجاري بالمنطقة كلها خاصة النشاط البحري منه.

---

١) اتفاقية سلام وتجارة بين المنصور الموحدي وحكومة بيزة ، ص١٧ – ٢٢، اتفاقية صلح بين الخليفة الحفصي أبي يحيى زكرياء وحكومة بيزة في عام٧١٣هـ، ص٨٦ - ٩٧، روبار برنشفيك: مرجع سابق، جـ١، ص٥٥.

٢) اتفاقية صلح بين الخليفة الحفصي ابي يحيي زكرياء وحكومة بيزه في عام ٧١٣ هـ، ص٨٦ - ٩٧، روبار برنشفيك: مرجع سابق، جـ١، ص٥٤ – ٥٦.

obeikan.com

كما تحكم في البحر المتوسط في تلك الفترة مجموعتان رئيسيتان من القوي، المجموعة الأولي هي القوي النصرانية والمتمثلة في دول أوربا وأهما صقلية والمدن الايطالية، والمجموعة الثانية هي القوي الإسلامية والمتمثلة في الدول الإسلامية التي قامت في بلاد الشام وشمال افريقية وكان لكل من هذه الأطراف دوره السياسي الذي انعكس بالضرورة على الوضع الاقتصادي في المنطقة خاصة فيما يتعلق بالنشاط التجاري البحري. وكان للعلاقات الدولية أثرها على النشاط التجاري البحري للمغرب الأدنى في تلك الفترة، وتمثلت تلك العلاقات في شكليين أساسيين هما صراعات حربية وما ارتبط به من أعمال قرصنة، وعلاقات دبلوماسية وما أرتبط بها من معاهدات واتفاقيات دولية .

obeikan.com

رابعاً – العوامل الدينية والاجتماعية:

تعتبر العوامل الاجتماعية والدينية من أهم العوامل المؤثرة على أي نشاط إنساني خاصة في فترة الدراسة، لما كان للعلاقات الشخصية والشعائر الدينية من أولية في العلاقات الحضارية للشعوب ، ومنها بالطبع النشاط التجاري.

أ – العوامل الدينية:

قيل في العصور الوسطي إن الدين والسياسة والتجارة متشابكين بشكل وثيق حتى أنه من الصعب تقريباً الفصل بينهم(١). فقد كان العامل الديني مؤثراً بشكل كبير علي التجارة البحرية، حيث اثر ذلك العامل في اتجاهين اتجاه ايجابي واتجاه سلبي، أما الاتجاه الايجابي فيتمثل في أن انتشار الإسلام ليشمل مناطق واسعة من المراكز والبلاد التجارية البحرية الممتدة من الشرق الأقصى إلي بلاد الأندلس، حيث أصبح الإسلام حلقة الوصل بين البحر الأحمر والمحيط الهندي من جهة والبلاد الإسلامية المطلة علي البحر المتوسط من جميع جوانبه من جهة أخري(٢). وبذلك اتسعت رقعة الأماكن التي لعبت دور كبير في التجارة عامة خاصة البحرية منها.

أما تأثيره السلبي فيتمثل في الكراهية الدينية المتبادلة بين مسلمي ونصارى تلك الفترة، والتي نتج عنها صدور قرارات دينيه من الجانبين بتحريم التعامل أو بعض السلع المتبادلة بين الجانبين، وتفسير ذلك أن البابوية كانت تحذر النصارى من التعامل تجارياً مع المسلمين، وتذكرهم بين الحين والآخر بأن الإسلام هو عدوهم الحقيقي. ومن حين لآخر علا صوت البابا مذكراً أن الإسلام هو العدو، وأنه مبدئياً ممنوعاً أن يصدر نحو الأراضي الإسلامية ما من شأنه أن يزيد في طاقاتها. وكان المنع يشمل لا الرقيق النصارى فحسب، بل كذلك مجموعة من المواد كالأسلحة والمعادن

---

(١) William Heywood :Op,Cit ,p ٤٤ .

(٢) André Wink ; Op,Cit , p٤٣٦ .

obeikan.com

والمراكب والمواد الصالحة لبنائها ولتجهيزها كالخشب والحديد والحبال، وكذلك المواد الغذائية ولاسيما الحبوب"[١].

ولقد طبقت بعض الدول النصرانية مراراً وتكراراً قرارات الحظر الصادرة عن الكنيسة، ولدينا عدة أمثلة على ذلك المنع الصادر عن بعض الحكومات الأوربية ضد رعاياها الذين يتاجرون مع إفريقية، فنجد مثلاً أن البندقية قد منعت تجارها في عام٣٦٠ هـ/٩٧١م من تصدير المواد ذات الصبغة الإستراتيجية، مثل الأسلحة والخشب المستعمل في صناعة السفن إلي البلدان الإسلامية، باستثناء ألواح خشب الدردار أو الصفصاف، التي يتجاوز طولها خمسة أقدام وأدوات الطبخ الخشبية وأدوات الحياكة، وذلك وفقاً لروح التعليمات البابوية . وقد طُبق هذا الإجراء فوراً علي ثلاث سفن كانت علي وشك الإقلاع، الأولي والثانية في اتجاه المهدية والثالثة في اتجاه طرابلس الغرب[٢]. كذلك من هذه الأمثلة الأكثر وضوحاً هو الصادر عن ملك أرجونة خايم الأول ضد إفريقية. ففي١٢ أغسطس عام١٢٧٤م ذكر الملك القطلونيين اللذين رخّص لهما التحول إلي تونس، بالقرار الذي اتخذه في برشلونة، بالاتفاق مع الدومينيكان والفرنسيسكان، بخصوص منع إمداد "المسلمين بالمواد التالية: "الأسلحة والحديد والخشب والقمح والشعير والذرة البيضاء والدخن والفول ودقيق كل الحبوب والجلبان وحبال القنب أو غير ذلك من المواد الصالحة لصنع حبال السفن والرصاص"[٣].

---

١) نجاة باشا: التجارة في المغرب الإسلامي من القرن الرابع إلى القرن الثامن للهجرة ، الجامعة التونسية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تونس١٩٧٦، ص٦٤، هشام أبو رميله: مرجع سابق، ص٣٩٢، ٣٩٣.

٢) الهادي روجي إدريس: مرجع سابق، جـ١، ص١٥٩ – ١٦١،

Mas Latrie :Traite de Paix et de Commerce et Documents, p١١,١٢ .

٣) روبار برنشفيك: مرجع سابق، جـ٢، ص٢٦٧.

obeikan.com

أما من الجانب الآخر أي المسلمين فرغم أن السفر والتجارة في بلاد غير المسلمين كانت مكروهة إلا أنها لم تكن تعد بين الأمور الحرام في الشرع الإسلامي، ولكن ربما بسبب القرب الجغرافي بين المناطق المسيحية والأندلس وشمال إفريقيا إلي درجة أقل نجد فقهاء المالكية في الغرب الإسلامي يميلون إلى اتخاذ موقف أكثر تشدداً حول السفر والتجارة في "دار الحرب " مما تتخذه المدارس الفقهية الأخرى. ونجد فقهاء الأندلس اللاحقين مثل ابن رشد (ت٥٢٠ هـ /١١٢٦م) يحكمون ضد التجارة في ديار الحرب[١].

كما كان الفقهاء المغاربة يكونون عداوة لمتاجر المسلمين مع المسيحيين. وجدنا في بعض الوثائق يطالبون فيه التجار المسلمين بالحذر في علاقاتهم مع المسيحيين وينصحونهم بعدم بيع " الخيول وكل ما يؤذي المسلمين[٢]. وقد جمع الأمير الزيري تميم بن المعز (٤٥٤– ٥٠١هـ /١٠٦٢ – ١١٠٨م) الفقهاء لإصدار فتوى حول التعامل مع صقلية، فأفتي المازري بعدم جواز التعامل معهم رغم الحاجة، واستشهد في ذلك بقوله تعالي: بسم الله الرحمن الرحيم(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ

١) ابن رشد: كتاب المقدمات المُمَهِّمدات لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعيات والتحصيلات المحكمات لأمهات مسائلها المشكلات، تحقيق محمد حجي– سعيد احمد أعرابي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الاولي ١٩٨٨م، جـ٢، ص١٥١ – ١٥٤، اوليفيا ريمي كونستبل: مرجع سابق، ص١١١، ١١٢، سلمي الخضراء الجيوسي: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، جـ٢، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى١٩٩٨م، ص١٠٧٧.

٢) المازري: مصدر سابق ، ص ٨٣، صالح بن قربة وآخرون: مرجع سابق، ص٣١٦.

obeikan.com

يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) صدق الله العظيم[١]، ولذا وجب على المسلمين الإقتداء بالمسلمين الأوائل وتفويض الأمر إلى الله[٢].

ورغم ذلك فإن هذه التحريمات بقيت بدون اثر كبير، ولم تكن لتحد من ذلك النشاط التجاري. بل كنا نلاحظ اتجاهاً عاماً تصاعدياً نشطت به التجارة غير الرسمية في مادة الحبوب والزيت والمنتجات الصالحة للاستهلاك العادي. وكانت السلطة الدينية والسياسية نفسها تغض الطرف عن ذلك، بل هي سمحت بتنظيم النشاط التجاري وتدعيمه بين شواطئ إسبانيا المسيحية وضفاف أوروبا الجنوبية من جهة وبلاد المغرب الإسلامي من جهة أخري. ففي بعض الوثائق التابعة لبلاط أراغون نجد نصاً يتعرض إلي بعض التجار من برشلونة اقترفوا ذنباً خطيراً ببيعهم سفينة لبعض المسلمين، فصدر عليهم حكم مبدئي بغرامة مالية قدرها ٥٠٠ صولدي برشلوني [٣].

كما أن الوضع الديني أثر على مسالك التجارة البحرية عامة ، فقد اتجه التجار البحارة في أوروبا اللاتينية إلى تفضيل الطرق الممتدة عبر شواطئ البحر المتوسط الشمالية أو على أطراف الأرض المسيحية، فيما كان التجار من العالم الإسلامي يفضلون الطرق الجنوبية. وقد بقي معيار الهوية الشخصية علي أسس دينية والأصل الجغرافي على الرغم من وجود خطوط مشتركة بين مجموعات التجارة المختلفة[٤].

---

١) سورة التوبة: الآية ٢٨.

٢) المازري: المصدر السابق، ص ٨٣، ٢٠٧ ، عبد المالك بكاي: مرجع سابق، ص٨٢، ٨٣.

٣) هشام أبو رميله: مرجع سابق، ص٣٩٨، ٣٩٩.

٤) أوليفيا ريمي كونستبل: مرجع سابق، ص١١٧، ١١٨،

J.Pryor: Geography, technology, and war : Studies in the maritime history of the Mediterranean . ٦٤٩ – ١٥٧١ , Cambridge , ١٩٨٨.

Obeikan.com

ب – العوامل الاجتماعية:

كان مجتمع المغرب الأدنى[١] يتصف ببعض الصفات الأخلاقية والعادات الاجتماعية التي أثرت بشكل مباشر على النشاط التجاري البحري، وتنقسم تلك الصفات لصفات وقيم وعادات حميدة وأخري سيئة .

أما الصفات الحميدة فنجد بعض المدن اتصف أهلها بأخلاق وقيم وعادات اجتماعية ساهمت في دعم النشاط التجاري، فمثلاً كان سكان طرابلس أحسن الناس معاملة للاجانب[٢]. وقد أشار التجاني إلى صفات أهل تلك المدينة: " أن في خواصهم وعوامهم إكراماً لمن يحل ببلدهم من الغرباء ووفاء بحقوقهم ومرعاة شديدة لأمورهم "[٣].

---

١) كانت قبائل البربر هم العنصر الأقدم المعروفة في المغرب الأدنى آنذاك مثل قبائل زناته التي تنقسم إلى ثلاث مجموعات رئيسية جراوة وبني يفرن ومغراوة كما كانت قبائل صنهاجة مسيطرة على تلك المنطقة منذ أمدٍ بعيد. كما كانت لواته ونفوسه وأداسه من القبائل المحلية المستقرة بمنطقة طرابلس منذ الفتح الإسلامي، إلا أن القبائل العربية كانت هي العنصر الأبرز من سكان المغرب الأدني في فترة البحث، وخاصة بني هلال. وكان هناك عناصر ذوي أصل أجنبي مثل بعض المجموعات المتسربة من الأندلسيين والموالي المعتنقين للدين الإسلامي، سواء من الأوربيين أو من الزنوج، انظر: الذهبي: تاريخ الإسلام، جـ٣٨، ص٢٦٣، الزركشي: مصدر سابق، ص١٢، إسماعيل كمالي: سكان طرابلس الغرب، ترجمة حسن الهادي بن يونس، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس١٩٩٧م، ص٢٠، ٢٦،٢٧،٣١، عبد الوهاب بن منصور: مرجع سابق، جـ١، ص٣٩٦.

٢) مجهول: الاستبصار، ص١١٠.

٣) رحلة التجاني: ص٢٥٨، محمد حمام: مدينة طرابلس، ص٢١.

ومن الشعر الذي ذكر في اخلاق اهل طرابلس في تلك الفترة:

لأهل طرابلس عـادة ****** من البر تُنسي الغريب الحميما

حللتُ بها مُكرهاً ثـم إذ ****** أقمت بها أبدلـوا الهاء ميما

، انظر: رحلة التيجاني: ص٢٥٨، محمد حمام: مدينة طرابلس، ص٢١.

obeikan.com

كما كان سكان مدينة المهدية لهم خبرة كبيرة في العلاقات والمعاملات التجارية[١]. واشتهر سكان مدينة تونس بالأمانة وطهارة اليد وعدلهم وتناصفهم وإتباعهم الحق[٢]، كما اشتهر أهل زويلة بالفطنة والخبرة وحسن التعامل مع الغرباء[٣].

وعلى الجانب الآخر كانت بعض المناطق الساحلية يتصف سكانها بسوء الخلق، فقد اتسم أهل جزيرة جربة بأن أهلها تربوا على الشر والنفاق وهم أهل فتنة وخروج على الطاعة[٤]. كذلك كان سكان جزيرة زيزوا المجاورة لجزيرة جربة خوارج، وكذلك جميع الحصون والقصور التي تلي هاتين الجزيرتين يتمذهبون بمثل ذلك، وذلك أنهم لا يماسح ثوب أحدهم ثوب رجل غريب ولا يمسه بيده ولا يؤاكله ولا يأكل له في آنية إلا أن تكون آنية محفوظة ولا يمسه بيده ولا يؤاكله[٥].

وكان أهل مدينة (سرت)[٦] يتصفون ببعض السلوكيات السيئة التي أثرت بشكل مباشر على التجارة البحرية الواردة لهذه المدينة، فيصف صاحب الاستبصار أهل سرت هم أخس الناس خلقاً وأسوءهم معاملة؛ لا يبيعون ولا يبتاعون إلا بسعر قد اتفقوا عليه. وعندما ينزل المركب بساحلهم موسوقاً بالزيت؛ وهم أحوج الناس إليه، فيعمدون إلى الزقاق الفارغة فينفخونها ويصففونها في حوانيتهم، ليرى

١) الادريسي : مصدر سابق، ص٢٨٣ .
٢) الأبي: مصدر سابق، جـ٥، ٢٦٤، ص٣١.
٣) الإدريسي: مصدر سابق، جـ١، ص٢٨٣.
٤) المصدر السابق: ص٣٠٤.
٥) المصدر السابق: ص٣٠٥، ٣٠٦.
٦) مدينة سرت: من مدن المغرب الأدنى، تقع بين مدينتي بنغازي وطرابلس، اشتهرت قديما بازدهار الأنشطة التجارية والصناعية بها، وانها محاطة بالبساتين العديدة، انظر: البكري: مصدر سابق، ص٦، سعيد علي حامد: مرجع سابق، ص١٥٦ – ١٦.

obeikan.com

أهل المركب أن الزيت عندهم كثير بائر، فلو أقام أهل المركب إلى ما شاء الله أن يقيموا، ما باعوا منهم إلا على حكمهم(١).

وإذا انتقلنا لدائرة أوسع ، نجد أن أغلب أهل المدن الساحلية والجزر التي دخلت في نطاق بحثنا، قد أيقنوا أن المعاملة الحسنة للأجانب خاصة التجار سبباً رئيسياً في ازدهار النشاط التجاري عندهم، لذلك نجد أن أهل مدن ساحلية مغربية أخرى مثل وهران، قد اتسموا بمساعدة الغريب والنخوة في معاملة الغرباء(٢). كذلك أهل المدن الأندلسية الساحلية، مثل مدينة بلنسية قد اشتهروا بالكرم وطيب المعاملة خاصة مع الغرباء(٣).

كما أن المعاملة الحسنة كانت سمة رئيسية عند أهل المدن الساحلية والجزر حتى في أقصى الشرق، فنجد أهل تلك البلاد سواء ببلاد الهند أو الصين أو الجزر المحيطة بهما قد اهتموا باستقبال المسافرين والتجار الغرباء أفضل استقبال، من خلال تقديم الأطعمة والأشربة لهم والعمل على توفير سبل الراحة لهم، ورغم ذلك فقد وجدت بعض الاستثناءات لهذه القاعدة فقد كانت هناك بعض المناطق والجزر تسيء معاملة الغرباء بل تسطوا على ما معهم من مدخرات وبضائع(٤).

إذن كان العامل الديني مؤثراً بشكل كبير على التجارة البحرية ، حيث اثر ذلك العامل في اتجاهين اتجاه ايجابي واتجاه سلبي، أما الاتجاه الايجابي فيتمثل في أن انتشار الإسلام ليشمل مناطق واسعة من المراكز والبلاد التجارية البحرية الممتدة من الشرق الأقصى إلي بلاد الأندلس، حيث أصبح الإسلام حلقة الوصل بين البحر الأحمر والمحيط الهندي من جهة والبلاد الإسلامية المطلة على البحر المتوسط من

---

١) مجهول: الاستبصار، ص١٠٩.

٢)الإدريسي: مصدر سابق، جـ١، ص٢٥٢.

٣) الحميري: مصدر سابق، ص٩٧.

٤) الإدريسي: مصدر سابق، جـ١، ص١٨٨، ١٨٩، ابن بطوطة: مصدر سابق، ص٦٠٨، ٦١٧.

obeikan.com

جميع جوانبه من جهة أخرى، أما تأثيره السلبي فيتمثل في الكراهية الدينية المتبادلة بين مسلمي ونصارى تلك الفترة والتي نتج عنها، صدور قرارات دينيه من الجانبين بتحريم التعامل أو بعض السلع المتبادلة بين الجانبين. كما كان هناك تاثير للوضع الاجتماعي فقد اتصفت مجتمعات المراكز التجارية البحرية ببعض الصفات الأخلاقية والعادات الاجتماعية التي أثرت بشكل مباشر على النشاط التجاري البحري.

من خلال ما سبق يمكن القول أن هناك العديد من العوامل التي أثرت بشكل مباشر أو غير مباشر في النشاط التجاري البحري للمغرب الأدنى، وهى عوامل طبيعية مثل الموقع والتضاريس والموارد الطبيعية والعوامل المناخية بالإضافة للكوارث الطبيعية. كما كانت العوامل الاقتصادية لها تأثيرها خاصة فيما يتعلق بالرعي والنشاط الزراعي والصناعي بالإضافة للتجارة البرية. كما كان للعوامل السياسية والأمنية تأثير كبير على النشاط التجاري البحري للمغرب الأدنى خاصة فيما يتعلق بالأوضاع السياسية، وكذلك فيما يخص العلاقات الدولية. كما كانت للعوامل الاجتماعية والدينية نصيبها في التأثير على هذا النشاط. ولكن إذا كانت تلك هي العوامل التي أثرت على النشاط التجاري البحري للمغرب الأدنى، فما هي المراكز التجارية البحرية التي دخلت في نطاق هذا النشاط ؟ هذا ما سنتعرف عليه في الفصل الثاني.

openkan.com